مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

البحث
٢

مطابقة حال المتكلم فى القرآن الكريم

دراسة نظرية تطبيقية

إعداد
د / عبد الحميد أحمد يوسف هنداوى
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد والأدب المقارن
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

محكمة تصدرها كلية آداب المنوفية
العدد الرابع والستون
يناير ٢٠٠٦
web site: http // : www.menofia. edu. eg *** http : // Art.menofia . edu. eg

مطابقة حال المتكلم فى القرآن الكريم

دراسة نظرية تطبيقية

دكتور

عبدالحميد أحمد يوسف هنداوي(*)

تعد فكرة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" هى الفكرة الجوهرية التى أثرت تأثيرا كبيرا فى توجيه البحث البلاغى وتحديد كثير من مساراته فى شتى عصوره؛ فقديما قال بشر بن المعتمر في صحيفته: "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف مع الصواب وإحراز المنفعة، ومع موافقة الحال، ومع ما يجب لكل مقام من المقال"(١). ولقد صارت هذه المطابقة هى غاية البحث فى علمى المعانى والبيان، حيث عرف الأول بأنه: "**علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال**"(٢) وعرف الثانى بأنه: "**معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه**"(٣)، بل لقد عرفت بها البلاغة كلها حيث قيل إنها: "**مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته**"(٤).

أما مصطلح الحال فقد كان يرادف فى أغلب استعمالاته لدى البلاغيين مصطلح المقام، وذلك أن "الحال والمقام متقاربا المفهوم"(٥) وكل من المصطلحين يقصد به مجموعة الاعتبارات والظروف والملابسات التى تصاحب النشاط اللغوى أو تلابسه.

ولقد عرفت الحال فى تراثنا البلاغى بأنها: "الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص"(٦) أو هي: "الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، وهو مقتضى الحال. مثلا: كون المخاطب منكرًا للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضى الحال، وقولك له: "إن زيدًا في الدار" -مؤكد بإن- كلام مطابق لمقتضى الحال"(٧) فالحال هي: الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يميز كلامه بميزة تعبيرية خاصة، ومعنى ذلك أن الأحوال أو المقامات هى مجموعة المؤثرات (غير اللغوية) التى تؤثر فى لغة الكلام البليغ بحيث تترك فيه سمات تعبيرية توائمها وتتنوع بتنوعها وهذه السمات هى ما سماها السَّكَّاكى وغيره فى تعريف المعانى السابق بخواص التراكيب(٨)، وهذه الخواص هى ما يقتضى الحال ذكره، أو ما يعرف بمقتضى الحال

(*) الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

حسب اصطلاح هؤلاء البلاغيين.

وتلك الخواص أو المقتضيات هى التى عرضوا لها فى مباحث علم المعانى كالتقديم أو التأخير أو الذكر أو الحذف أو التعريف أو التنكير.. إلخ باعتبارها مقتضيات تتنوع بتنوع الأحوال أو المقامات ويكون لها – من ثم – أثرها فى حسن الكلام وبلاغته، يقول السَّكَّاكى فى ذلك[٩] : "لما تقرر أن مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال، وعلى لا انطباقه، وجب عليك أيها الحريص على ازدياد فضلك، المنتصب لاقتداح زناد عقلك المتفحص عن تفاصيل المزايا التى بها يقع التفاضل، وينعقد بين البلغاء فى شأنها التسابق والتناضل - أن ترجع إلى فكرك الصائب، وذهنك الثاقب، وخاطرك اليقظان، وانتباهك العجيب الشأن، ناظراً بنور عقلك، وعين بصيرتك، فى التصفح لمقتضيات الأحوال فى إيراد المسند إليه على كيفيات مختلفة، وصور متنافية، حتى يتأتى بروزه عندك لكل منزلة فى معرضها، فهو الرهان الذى يجرب به الجياد، والنضال الذى يعرف به الأيدى الشداد، فتعرف أيما حال يقتضى طى ذكره، وأيما حال يقتضى خلاف ذلك، وأيما حال يقتضى تعرفه: مضمراً، أو علماً، أو موصولاً، أو اسم إشارة، أو معرفاً باللام، أو بالإضافة، وأيما حال يقتضى تعقيبه بشيء من التوابع الخمسة، والفصل، وأيما حال يقتضى تنكره، وأيما حال يقتضى تقديمه على المسند، وأيما حال يقتضى تأخيره عنه، وأيما حال يقتضى تخصيصه أو إطلاقه حال التنكير، وأيما حال يقتضى قصره على الخبر"[١٠].

ومن هنا نستطيع أن ندرك قيمة الحال أو المقام وما لها من أثر كبير فى استدعاء تلك الخواص التركيبية أو المقتضيات البلاغية، ومن ثم لا غنى لنا عن استكشاف ذلك الحال أو المقام قبل الولوج إلى أى نص أدبى يراد تحليله، والوقوف على مدى إجادة مبدعه فى اختيار تلك الخواص التركيبية التى تعرف بمقتضى الحال.

وإذا نظرنا إلى كلام البلاغيين فى كتب البلاغة النظرية فسوف نجد أنهم إنما يعنون بمصطلح الحال حال المخاطب وحده، وذلك ظاهر فى جميع مباحث البلاغة، وفى حديثهم عن كافة ما انتهت إليه تصوراتهم العقلية من مقتضيات تلك الحال من توكيد وذكر أو حذف وتقديم أو تأخير، أو إيجاز أو إطناب.. إلخ.

والأدلة على ذلك كثيرة لا تحصى، وخير مثال على ذلك:

مبحث الخبر:

وتقسيمه إلى أنواع ثلاثة:

(أ) **الخبر الابتدائى:**– وهو ما يكون فيه المخاطب خالى الذهن من الحكم، وهذا الخبر فى نظرهم يستغنى فى صياغته عن المؤكدات لأن خلو ذهن المخاطب يجعل

الخبر يتأكد فى نفسه دون الاستعانة بأى أداة من أدوات التوكيد.

(ب) الخبر الطلبي: وهو ما يتوجه إلى مخاطب يتردد فى قبول الخبر، وهذا يحسن فى نظرهم توكيده بمؤكد واحد كى يزيل تردد المخاطب، ويحقق مضمون الخبر لديه.

(ج) الخبر الإنكارى:– وهو ما يتوجه إلى مخاطب ينكر الحكم صراحة، ومن ثم يصبح من اللازم توكيده بمؤكد أو أكثر حسب درجة إنكار من يلقى إليه.

ويستشهد البلاغيون على ذلك بقوله عز وجل: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**﴾(١١)

فإن هؤلاء الرسل حين ووجهوا بتكذيب أصحاب القرية لهم قالوا: ﴿**إنا إليكم مرسلون**﴾ وهو أسلوب خبرى فيه من وسائل التوكيد (إن) واسمية الجملة، فلما بالغ أصحاب القرية فى التكذيب، ولجُّوا فى الإنكار كرر عليهم الرسل الخبر الأول مضافاً إليه ألواناً جديدة من التوكيد حيث قالوا: "**رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**" فجاء الأسلوب كما ترى مؤكدا بالقسم فى صدره و(إن) واللام واسمية الجملة، فضلاً عن التكرار الذى هو فى حد ذاته وسيلة أخرى من وسائل التوكيد.

ويعد البلاغيون الخبر الذى يرد مطابقاً لحال من تلك الأحوال السابقة خبراً وارداً على مقتضى الظاهر أى أنه مراعى فيه ظاهر حال المخاطب. ويرى البلاغيون– تبعاً لذلك – أن الخبر قد يرد مخالفا لمقتضى الظاهر، وذلك لملاحظ واعتبارات يرعيها المتكلم بحيث تصبح هى الأحوال التى يرد الأسلوب الخبرى وفقاً لمقتضاها.

فقد ينزل خالى الذهن منزلة المتردد: وذلك إذا كان فى سياق الكلام ما يثير ترقبه وتطلعه للخبر، إذ يصبح هذا الترقب لديه منزلة التردد، وهذا يسوغ تأكيد الخبر له رغم خلو ذهنه، ويمثل البلاغيون لذلك بقوله تعالى: ﴿**ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾(١٢) فإنه لما قال: ﴿**ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا**﴾ بعد قوله عز شأنه: ﴿**واصنع الفلك بأعيننا**﴾ صار المقام مقام تلهف وترقب لمصير هؤلاء الظالمين، ولذا ورد الإخبار بهذا المصير مؤكداً بإن.

وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر: وذلك إذا بدا عليه شىء من أمارات الإنكار، فيخاطب حينئذ بالخبر مؤكدا فى الأمر الذى لا ينكره.

وقد ينزل المنكر منزلة غير المنكر: وذلك للإيحاء بأن إنكاره لا قيمة له، ولا اعتداد به.

وهذا يؤكد لنا ما سبق تقريره من أن البلاغيين فى دراستهم النظرية لم يلتفتوا فى بحثهم للحال إلا إلى حال المخاطب وحده، مما أوقعهم فى إهمال حال المتكلم نفسه، وغير ذلك من قرائن الحال المقامية والمقالية التى ينبغى أن توضع فى الاعتبار.

فضلاً عما وقعوا فيه من تمحل الافتراضات لحال المخاطب لتخريج الأسلوب وفق تلك الأحوال المفترضة، مع أنه ليس من الضرورى أن يكون الباعث على التوكيد مراعاة حال المخاطب. فقد لا يكون هناك مخاطب أصلاً، ويرد أسلوب التوكيد مفصحاً عن وهج انفعالات الأديب واضطرام مشاعره، وعمق إحساسه بموضوع تجربته.

أو يأتى الكلام مراعًى فيه حال المتكلم المنشئ للكلام أكثر من رعايته حال المخاطب، وهو الأمر الذى أهمله أو غفل عنه أكثر المنظرين للبلاغة فى مرحلة استقرار التأليف البلاغى[١٣].

وهذا ما سوف يضطلع هذا البحث بتجليته وبيان أهميته من خلال دراسة تطبيقية لعدد من نماذجه فى القرآن الكريم نبرهن بها على أهمية رعاية حال المتكلم فى الكشف عن أسرار خواص التراكيب وبيان مدى مطابقتها لمقتضى الحال.

والواقع أن "حال المتكلم" هى الأساس الأول الذى تتحقق به المطابقة فإذا كان مصطلح الحال يطلق على كل من حال المخاطب، والغرض الذى أنشئ الكلام لأجله من مدح أو افتخار أو اعتذار.. إلخ، والظروف والاعتبارات الخارجية المصاحبة للكلام أو الداعية إليه كمناسبة القصيدة أو سبب نزول الآية الكريمة أو البيئة الزمانية أو المكانية للنص أو غير ذلك، فضلاً عن حال المتكلم، يمكننا أن نقرر أن الأحوال الثلاث السابقة هى بمثابة "الواقع الخارجى" للتجربة، ذلك الواقع الذى لا يكون العمل الفنى رصداً آليا مباشراً له، بقدر ما يعد تصويراً فنيًّا لرؤية المبدع له، وانفعاله الخاص به، وموقفه المتفرد منه[١٤].

وبمقدار تعبير العمل الأدبى عن رؤية المبدع وتجربته الخاصة يكون الحكم بالتطابق ومن ثم يكون الحكم بنجاح هذا العمل، بعكس ما إذا لم يراع فى العمل الأدبى إلا المخاطب وحده دون أن يصدر الكلام عن رؤية صادقة، وتجربة حية.

وإذا كان الحال أو المقام بهذه الدرجة من الأهمية للتحليل البلاغى فإننا ندرك بذلك مدى القصور الذى لحق التحليل البلاغى نتيجة لإغفال منظرى البلاغيين المتأخرين جزءاً كبيراً من الحال أو المقام كإغفالهم لحال المتكلم على سبيل المثال.

ونستطيع أن نقرر – من باب الإنصاف للبلاغيين- نتيجة لبعض ما قمنا به من محاولة الاستقراء فى هذه النقطة، أن الباحثين المحدثين[١٥] الذين أطلقوا القول بعدم اهتمام البلاغيين بحال المتكلم إنما أطلقوا هذا القول باعتبار نظرهم إلى ما قرره

البلاغيون المتأخرون فى كتب البلاغة النظرية فقط دون مطالعة كافية لمحاولات بلاغي المفسرين الذين فطن بعضهم لهذه النقطة وهى مراعاة حال المتكلم فى تحليلاتهم البلاغية، وهؤلاء كالإمام الزمخشرى ومن تأثر به من المفسرين كالإمام الطيبى على سبيل المثال.

فقد اهتم الطيبى فى تطبيقاته البلاغية خاصة وفى مؤلفاته البلاغية عامة بمراعاة حال المتكلم حيث لم يقصر نظرته فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال على حال المخاطب على نحو ما فعل البلاغيون ويظهر ذلك فى مواضع عديدة من مؤلفاته البلاغية.

فمن ذلك يرى الطيبى أن قوله تعالى على لسان مريم: ﴿**أنى يكُونُ لى غُلامٌ**﴾[١٦] قد روعى فيه حال المتكلم: "كأنها من فرط تعجبها ونهاية استبعادها نبذت الوصف وراءها ظهريًا وأتت بالموصوف وأخذت فى تقرير نعته على أبلغ وجه، أى ما كان أبعد وجود هذا الموصوف مع هذه الموانع بله الوصف، وهو قريب من الأسلوب الحكيم، ولما كان الاهتمام بشأن النفى فى الثانى أتم آثرت (كان) للإيذان بأن انتفاء الفجور لازم لها وبعيد أن تتصف به بما يخالف العفة لأنها كانت من بيت العفة ومعدن الطهارة "[١٧].

ومع التفات الطيبى هنا إلى مراعاة الآية لحال المتكلم، فإنه يجعل هذا الحال للمتكلم جزءا من المقام الذى يربط بينه وبين النظم ربطاً واضحاً فى تحليله لأسلوب تلك الآية الحكيمة، على نحو ما رأينا.

كذلك يأتى كلام الطيبى عن الالتفات، وخاصة الالتفات الواقع فى سورة الفاتحة بياناً كاشفاً لمراعاة حال المتكلم بها، وقد جعل الطيبى الالتفات الواقع فيها مقتضى لتلك الحال، رابطاً بذلك بين نظم السورة والمقام الذى وردت فيه.

فقد مثل الطيبى للالتفات من الغيبة إلى الخطاب بقوله: ﴿**الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمين**﴾ إلى قوله: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[١٨] والحق أن ما ذكره الطيبى هنا فى تحليله للالتفات فى الفاتحة يمتاز بروعة أسلوبه فيه عما قاله المفسرون والبلاغيون قبله.

وقد تعرض لبيان نكتة ذلك الالتفات فى حاشيته على الكشاف فقال فى تعليقه على قول الزمخشرى: "والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل"[١٩] وفى إيثار صيغتى أفعل - أى أعظم وأقصى - إيذاناً لحصول الترقى، وأن الحمد دون العبادة، وإشعار بتفاوت رتب كل من النسبتين على الأوصاف، وهو كذلك لأن الحمد شكر على نعمة سابقة فتقرر عند ذوى الألباب قضية: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ فلما حمد العبد النعم السابقة عنت له نعمة أخرى بأن كشف الحجاب عن أستار تلك الصفات فتوغل فى الشكر فيها وهى: رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، فأجراها حينئذ على المستحق لذلك الحمد، فزيد فى الكشف بأن صار البرهان عياناً، والغائب حاضرا

فخاطبه بقوله :﴿**إياك نعبد**﴾ وفى تضاعيف كلامه (أى الزمخشرى) إيماء إلى هذا المعنى"[٢٠].

وينقل الطيبى هنا عن ابن جنى قوله: "إنما ترك الغيبة إلى الخطاب لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى أمد الطاعة قال: إياك نعبد إصراحًا بها، وتقربًا منه"[٢١]

ثم قال الطيبى: " ويمكن أن يعتبر بلسان أهل العرفان ويقال: إن الحمد مبادىء حركة المريد فإن نفس السالك إذا تزكت ومرآة قلبه إذا انجلت فلاحت فيها أنوار العناية، والعناية هى التى أوجبت الولاية، وتجردت النفس الزكية للطلب، فرأت آثار نعم الله عليها سابغة وألطافه غير متناهية، فحمدت على ذلك، وأخذت فى الذكر، فكشف لها الحجاب من وراء أستار العزة عن معنى رب العالمين، فشاهدت ما سوى الله على شرف الفناء، مفتقرة إلى المبقى، محتاجة إلى التربية فترقت لطلب الخلاص من وحشة الإدبار، وظلمة السكون إلى الأغيار، فهبت لها من نفحات جنات القدس نسمات ألطاف الرحمن الرحيم، فعرجت من هذا المقام بلمعات بوارق الجلال من وراء سجاف الكمال إلى الأحد الصمد المالك الحقيقى، فنادت بلسان الاضطرار فى مقام لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، أسلمت نفسى إليك، وألجأت ظهرى إليك، وهنا خاضت لجة الوصول، وانتهت إلى مقام العين، فحققت نسبة العبودية فقالت: إياك نعبد، وهاهنا انتهاء مقام السالك ألا ترى إلى سيد الخلق، كيف عبر عن مقامه هذا بقوله تعالى: ﴿**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا**﴾ فطلبت التمكين بقوله: ﴿**إياك نستعين**﴾ و﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾، واستعاذت من التلوين بقوله: ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ فقصد مستكملاً ورجع مكملاً "[٢٢].

ومن ثم، فإن قيمة الالتفات فى الآيات تتجاوز عند الطيبى حد التطرية والتنشيط واستمالة المتلقى إلى الإصغاء، فكأنه يرى أن نكتة الالتفات هنا تتمثل فى رعاية حال المتكلم، فالعدول فى الآيات من مقام الغيبة إلى مقام المخاطبة والمشاهدة، يتطابق أتم المطابقة مع الحال التى تجددت للعبد بعد مثوله بين يدى مولاه، واستشعاره لربوبيته إياه، وسعة رحمته له فى العاجلة والآجلة، ومالكيته له فى الدنيا والآخرة، فأورثه استشعار الربوبية رغبة فى العبودية، واستشعار النعمة مع التقصير، والرحمة مع التفريط حياء ورغبة واستشعار المالكية فى الأولى والآخرة تذللا ورهبة، فاستشعر بتلك الأحوال لزوم العبودية له والافتقار إلى مولاه، فتوجه قلبه إلى ربه بالرغبة والرهبة والخضوع والإنابة، ولما كان جماع تلك الأحوال يسمى العبادة، فانطلق اللسان معبراً عن تلك الحال بقوله: "**إياك نعبد وإياك نستعين**".

وينبغى ألا يعترض هنا بأن هذا الكلام هو كلام رب العزة لا كلام العبد، وذلك لأن هذا الكلام ينسب إلى العبد ويعبر عن حاله من حيث إن العبد مأمور بقول: "**الحمد لله رب العالمين.. إياك نعبد**" إلخ. ولذلك قدر بعض المفسرين فى أول الكلام (قولوا) أى: (قولوا: الحمد لله رب العالمين.. إلخ)

ولما كان هذا الكلام مقولاً على لسان العباد؛ فمن ثم راعت السورة ذلك، وجاءت مشتملة على هذا الأسلوب المناسب لحال المتكلم به وهو العبد فى حال تعرفه على الله، وتوجهه إليه بالعبادة، فهو فى بادئ أمره يحمد غائبا عنه قد عُرف بصفاته، ووصف له، فحمده العبد بتلك الصفات متدرجا ومتنقلاً بين مشاهدها وظلالها حتى تجلت له عظمة تلك الذات، فصار المتحدث عنه كالحاضر المشاهد، وصار الغائب مخاطباً، فتحول من الحديث عنه إلى مخاطبته والإقرار بوحدانيته وعبوديته.

وقد تعرض الزمخشرى لبيان نكتة هذا الالتفات فقال: "ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيقة بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات فخوطب ذلك المعلوم المميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذى لا تحق العبادة إلا به"(٢٣).

وهذا الكلام واضح كما ترى فى التفات الزمخشرى إلى رعاية حال المتكلم بهذا الكلام. وجعل هذا الالتفات مقتضى لتلك الحال.

وكذلك يعلق الطيبى على حديث النبى -صلى الله عليه وسلم- "أيحسب أحدكم متكئا على أريكته يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا فى هذا القرآن، ألا إنى والله لقد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها كمثل القرآن أو أكثر "فيقول: "القسم فى الحديث مؤذن بالغضب الشديد على المنكر. ووصفه بالاتكاء على الأريكة شبعان من هذا القبيل"(٢٤)

نلاحظ أن الطيبى يلتفت هنا إلى حال المتكلم وأثره فى مجىء الحديث على هذا النظم

والحق أن الإمام شرف الدين الطيبى يعد من أكثر البلاغيين التطبيقيين اهتماما بحال المتكلم حيث أتاحت له تطبيقاته على الكشاف أن يوسع نظرته إلى الحال ليشمل حال المتكلم كذلك. نستطيع أن نتبين ذلك من خلال مقارنة سريعة بين كلامه وكلام معاصره الخطيب القزوينى فى مبحث أحوال الإسناد الخبرى حيث ذكر القزوينى وكذلك الطيبى أن المخاطب المنكر قد ينزل منزلة غير المنكر وعكسه، وبعدما ذكر القزوينى النوعين ممثلاً لهما عقبهما بقوله: "ومما يتفرع على هذين الاعتبارين قوله

تعالى:﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾[٢٥] أكد إثبات الموت تأكيدين – وإن كان مما لا ينكر – لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ فى إنكار الموت، لتماديهم فى الغفلة، والإعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل "ميتون" دون "تموتون" ...وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً – وإن كان مما ينكر– لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بأن ينكر، بل إما يعترف به أو يتردد فيه، فنزل المخاطبين منزلة المترددين، تنبيهاً لهم على ظهور أدلته، وحثاً على النظرة فيها، ولهذا جاء "تبعثون" على الأصل"[٢٦] وينقل الطيبى ذلك الكلام السابق للقزوينى فى التبيان مع تصرف يسير فيه، ثم يتبعه بقوله: هذا والذى يقتضيه النظم الأنيق، وتكرير كلمة التراخى فى الرتبة المستدعية للترقى فى الأطوار من لدن قوله: ﴿**ثم خلقنا النطفة**﴾ إلى قوله:﴿**ثم إنكم يوم القيامة تبعثون**﴾ أن تحمل إن على مجرد التوكيد بسطاً، فعل المؤمن فى جؤاره: ﴿**ربنا آمنا**﴾ ولما كان الموت هو الوسيلة إلى الوصول إلى نهاية المطالب، وكان مستدعياً لتفكيك ذلك التركيب العجيب الذى من حقه أن يصان منه بقوله: ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ أكد ذلك التوكيد،وضم مع كلمة التراخى لفظة بعد ذلك، ونحوه رمز جار الله فى قول المنافقين: ﴿**إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾[٢٧].

فالطيبى لم يرتض ما ذهب إليه الخطيب فى الآية، ويرى أنه ينبغى أن تحمل كلمة "إن" فى الآية على بسط الكلام، ويرى أن ذلك هو مقتضى النظم الأنيق، وتحقيق ذلك بالنظر إلى حال المتكلم كما يفعل الداعى فى دعائه بقوله: "**ربنا إننا آمنا**" فإنه لم يخاطب به منكراً ولا طالباً بل يحقق به تضرعه بين يدى الله، وأنه آمن عن طمأنينة قلب وثبات قدم.

وقد استأنس الطيبى هنا بما رمز به جار الله فى قول المنافقين: "**إنا معكم إنما نحن مستهزئون**" مما يدل على تأثره فى هذه السمة بالزمخشرى فى كشافه حيث قال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بإن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهما فى ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا فى ادعاء أنهم أوحديون فى الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولونه ويطمعون فى رواجه بين ظهرانى المهاجرين والأنصار والذين مثلهم فى التوراة والإنجيل، ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: "**ربنا إننا آمنا**"، وأما مخاطبة إخوانهم فهم

فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن ينـــزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلـــك فهو رائج عندهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد"[٢٨].

وعليه علق الطيبى على قول الزمخشرى السابق فى حاشيته على الكشاف فقال: "قوله: ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: ربنا إننا آمنا استئناف، وحاصله أن معـــنى التوكيد الذى تعطيه (إن) هاهنا ليس راجعاً إلى المخاطب فى إزالة تردده أو نفى شـــكه بل إلى المتكلم فى إظهار نشاطه، ووفور ارتياحه إيذاناً بأن المقام خليق بالإطناب، وإبداء ارتياحه ونشاطه وإعلاماً بأن السامع يتلقاه بالقبول ويصغى إليه"[٢٩].

وإذا كان الطيبى قد قرر مراعاة حال المتكلم وكررها فى مواضع كـــثيرة مـــن كتبه، فإن تلميذه –كذلك على بن عيسى، والذى تلقى على الطيبى شرح كتابه التبيـــان كما يقرر فى مقدمة كتابه "حدائق البيان فى شرح التبيان"– يزيد هـــذا الأمـــر تقريـــراً، وذلك حينما يشرح قول الطيبى فى الإسناد :" وهو بالنظر إلى المخاطب ثلاثة" فيقـــول: قوله: "بالنظر إلى المخاطب ثلاثة: فى هذا التقييد إشارة إلى أن فى الإسناد أيضا نظـــراً إلى غير المخاطب، وهو إما المتكلم أو غيرهما كالتعريض بالثالث، وسيجىء بيانه فى الكنايـــة إن شاء الله تعالى، وإما بالنظر إلى المتكلم فإنه قد يؤكد كلامه ابتداء، وخاصـــية هـــذه الطريق فى الإفادة إما الدلالة على كمال العناية والكرامة كما فى قوله تعـــالى: ﴿**يـــس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين**﴾ أو على كمال الغضب والسخط كمـــا فى قولـــه تعالى: ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق..**﴾ الآية. هـــذا إذا كـــان المتكلم الله عز وجل وأما إذا كان العبد فهو إما لإظهار غاية التضرع والابتهال كمـــا فى قوله: ﴿**ربنا إننا آمنا فاغفر لنا**﴾ أو نهاية الوجل والخوف كقوله: ﴿**ربنا إنك من تـــدخل النار فقد أخزيته**﴾ هذا إذا كان الخطاب مع الله. وإذا كان مع الغير فهو إما لإبداء وفور النشاط كما فى قول المنافقين لشياطينهم: ﴿**إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾ أو للإيـــذان بكمال الخوف والوجل كما فى قول إبراهيم عليه الســـلام لأضـــيافه: ﴿**إنكـــم قـــوم منكرون**﴾ أو بكمال الحذر والتوقى كما فى قوله أيضاً: ﴿**إنا مـــنكم وجلـــون**﴾ وفى الأمثلة كثرة فحم حولها[٣٠].

وبهذا نتبين مدى السبق الذى أحرزه الطيبى حيث تنبه إلى مراعاة حال المتكلم حيث غفل عنه البلاغيون، وقد تلقى تلميذ الطيبى على بن عيسى ذلك عنـــه وأودعـــه شرحه للتبيان كما ترى. فمنه در الطيبى فيما سبق إليه.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿**رب إنى وهـــن العظم منى، واشتعل الرأس شيباً، ولم أكن بدعائك رب شقياً**﴾[٣١]

قال الزمخشرى: " وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائــه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصــده إلى هذا الجنس الذى هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولــو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها" (٣٢).

ويعلق عليه الطيبى قائلاً: "المقصود فى هذا المقام إظهار الضعف فى البدن وإبداء تساقط القوى" (٣٣).

ويوضح الطاهر بن عاشور الغرض البلاغى للخبر فى هذه الآية بتحديد أكثــر فيقول: "والخبران من قوله: ﴿**وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً**﴾ مستعملان مجازاً فى لازم الإخبار، وهو الاسترحام لحاله؛ لأن المخبر بفتح البــاء عــالم بمــا تضــمنه الخبران"(٣٤).

ومن ثم يتضح لنا أن الغرض البلاغى للخبر هنا هو الاسترحام من الله تعــالى ببيان أنه قد بلغ المشيب ولا ولد له يرثه العلم والنبوة ويخلفه فى أداء الرسالة ويتضــح بذلك أن الكلام جاء مطابقا لحال المتكلم لا حال المخاطب، فهو لم يخاطــب جــاهلا بحاله ولا غافلاً عنه.

وكذلك الخبر فى قوله تعالى: ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا**﴾فالغرض منه هو التوسل بسابق رحمة الله تعالى إلى ما يرجى من مزيد رحمته.

قال الألوسى: "وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه تعالى من الاستجابة عند كل دعوة إثر تمهيد ما يستدعى الرحمة من كبر السن وضعف الحال؛ فإنه تعالى بعد ما عود عبده الإجابة دهراً طويلاً لا يكاد يخيبه أبداً لا سيما عنــد اضــطراره وشــدة افتقاره، وفى هذا التوسل من الإشارة إلى عظم كرم الله عز وجل ما فيه"(٣٥).

وفى قوله تعالى على لسان امرأة عمران: "**رب إنى وضعتها أنثى**"(٣٦).

قال الزمخشرى: "فإن قلت: فلم قالت: إنى وضعتها أنثى وما أرادت إلى هــذا القــول (قلت) قالته تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزنت إلى ربهــا لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً، ولذلك نذرته محرراً للسدانة. ولتكلمها بــذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: ﴿**والله أعلم بما وضعت**﴾ تعظيما لموضوعها وتجهيلا لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: (والله أعلم بالشىء الذى وضعت، وما علق به من عظائم الأمور وأن يجعله وولده آية للعالمين) وهى جاهلة بذلك ولا تعلم منه شيئا فلذلك تحسرت.

وقال السمين الحلبى: "**رب إنى وضعتها أنثى**" لفظ خبر فى ضــمنه التحســر والتلهف ......ثم قال: "وإنما تلهفت لأنهم كانوا لا يحررون الإناث لخدمة الكنــائس

ولا يجوز ذلك عندهم، وكانت قد رجت أن يكون ما فى بطنها ذكراً فلما وضعت أنثى تلهفت على فوت الأمل وأفزعها أن نذرت ما لا يجوز نذره"(٣٧).

أما عبارة الطاهر بن عاشور فقد كانت أرقى وأوفى وأرحب أفقا فى استجلاء نفسية امرأة عمران فى هذا التعبير القرآنى عن حالتها النفسية حيث قال:

وتأكيد الخبر بإن مراعاة لأصل الخبرية تحقيقاً لكون المولود أنثى، إذ هو بوقوعه على خلاف المترقب لها كان بحيث تشك فى كونه أنثى، وتخاطب نفسها بنفسها بطريق التأكيد، فلذا أكدته ...... وهذا التركيب بما اشتمل عليه من الخصوصيات يحكى ما يضمنه كلامها فى لغتها من المعانى : وهى الروعة والكراهية لولادتها أنثى، ومحاولتها مغالطة نفسها فى الإذعان لهذا الحكم ثم تحقيقها ذلك لنفسها وتطمينها بها، ثم التنقل إلى التحسير على ذلك، فلذلك أودع حكاية كلامها خصوصيات من العربية تعبر عن معان كثيرة قصدتها فى مناجاتها بلغتها"(٣٨)

قصدنا من إيراد تلك النماذج والأمثلة السابقة أن نبين كيف استطاع المفسرون فى تحليلاتهم للنصوص أن يسيروا مع ما تهدى إليه النصوص من رعاية حال المتكلم خلاف لما غفل عنه البلاغيون فى كتب البلاغة النظرية.

والحق أن اهتمام هؤلاء المفسرين بالجانب التطبيقى قد أوقفهم على تصحيح بعض ما انتهى إليه البلاغيون وقرروه فى الجانب النظرى، مما يحدونا إلى ضرورة الالتفات إلى أن الآراء البلاغية قد اختلفت وتفاوتت تفاوتاً بينا بين النظرية والتطبيق، وهذا يعنى أن كثيراً من الانتقادات التى وجهت إلى البلاغة كالقول بتجاهل النظر إلى حال المتكلم تتسم بشىء من التعميم ذلك أنها لا تكاد تنطبق إلا على الجانب النظرى من الدراسة البلاغية فحسب على حين كان المفسرون وبعض شراح الحديث كالزمخشرى. والطيبى والألوسى وابن عاشور وغيرهم أرحب أفقاً وأوسع فكرة ممن قصروا أنفسهم على الدراسة النظرية.

ولذا فسوف نقوم فى هذا البحث بدراسة تطبيقية لمزيد من النماذج التى روعى فيها حال المتكلم فى سورتى البقرة ويوسف، نحاول أن نستجلى ما فى هذه النماذج من مطابقة واضحة بين حال المتكلم والمقتضيات الأسلوبية التعبيرية لهذه الحال.

وقد اخترنا هاتين السورتين كنموذج لسور القرآن الكريم التى يظهر فيها حال المتكلم من خلال الحوارات والمواقف المختلفة، ولا شك أن ذلك واضح فى عموم القصص القرآنى فاخترنا هاتين السورتين لاشتمال سورة البقرة على كثير من حوارات لا سيما فى قصة بنى إسرائيل، وكذلك سورة يوسف لما فيها من حوارات عديدة بين شخصيات القصة، مع وضوح تيار الشعور فيها وتعدد جوانبه بين الحقد والحرص

والإشفاق والنصح والرحمة والأسى والحزن والأمل وغير ذلك.

وقد استعنت -بلا شك- فى هذا البحث بالإضافة إلى جهد الباحث الشخصى فى تحليل هذه النصوص، بما ورد عن المفسرين البيانيين كالزمخشرى والطيبى والألوسى والرازى والبيضاوى وغيرهم من إشارات بلاغية فى هذه الآيات دالة على التفاهم من الناحية التطبيقية إلى رعاية حال المتكلم، مما يلفتنا إلى ضرورة الاهتمام بالبلاغة التطبيقية، والالتصاق بالنصوص أكثر من العكوف على القواعد والنظريات.

النماذج المختارة
لرعاية حال المتكلم في سورة البقرة
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[٣٩]

جملة: (**إنما نحن مصلحون**) هى مقول قول المنافقين، وقد جاءت مطابقة لحالهم أتم المطابقة، وقد يتصور ابتداء أن الأسلوب قد تمحص لرعاية حال المخاطبين وهم المؤمنون الناهون لهم عن الإفساد فى الأرض، ونحن لا ننكر أن الأسلوب قد روعيت فيه المطابقة لحال المخاطب، فالمخاطبون بقول المنافقين: (**إنما نحن مصلحون**) هم المؤمنون، وهم يتهمون المنافقين بالإفساد فى الأرض، منكرين تمام الإنكار أن يكونوا على أدنى درجة من الصلاح بله الإصلاح، ولذا فإن المناسب لحال هؤلاء المخاطبين أن يؤكد لهم الكلام على هذا النحو بأسلوب القصر الذى قصر فيه المنافقون أنفسهم على صفة الإصلاح، فكأن أقوالهم وأفعالهم جميعا قد تمحضت إصلاحا ونصحا.

قال الزمخشرى: و(إنما) لقصر الحكم على شىء، كقولك: إنما ينطلق زيد، أو لقصر الشىء على حكم، كقولك: إنما زيد كاتب، ومعنى (**إنما نحن مصلحون**) أن صفة المصلحين خلصت لهم، وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجود الفساد"[٤٠].

ولكن إذا كان كلام المنافقين قد جاء مراعيا حال المخاطبين على هذا النحو؛ فإننا نقرر أنه فى الوقت نفسه لا يخلو من رعاية حال المتكلمين أنفسهم، بل لعل هذا هو المقصود الأول المقتضى لمجىء الكلام على هذا النحو، وهذا الأسلوب.

وذلك لأن المنافقين متهمون بالإفساد فى الأرض من قبل المؤمنين "وكان فساد المنافقين فى الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار، ويمالئوهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم، وإغرائهم عليهم، وذلك مما يؤدى إلى هيج الفتن بينهم. فلما كان ذلك من صنيعهم مؤديا إلى الفساد، قيل لهم: لا تفسدوا، كما تقول للرجل: لا تقتل نفسك بيدك، ولا تلق نفسك فى النار إذا أقدم على ما هذه عاقبته"[٤١].

فالمنافقون يداخلون كلا من المؤمنين والكافرين، ويترددون على الفريقين مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

فلما اطلع المؤمنون منهم على تلك الحال وعلموا ما يؤول إليه من الإفساد فى الأرض نهوهم عن ذلك، فزعم المنافقون أن موالاتهم لكلا الفريقين إنما هو بغية الإصلاح بين الفريقين، وذلك ما ذكره ابن كثير وغيره فى تفسيره، وساق بإسناده عن ابن عباس قال: "وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون" أى إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب"[٤٢].

ويتضح من ذلك أن حال هؤلاء المنافقين أهم يشعرون باهام المؤمنين لهم بالإفساد عن طريق موالاة الكافرين، وهذه التهمة تقدح فى إيماهم وتظهر فساد اعتقادهم، وهم حريصون كل الحرص على الظهور أمام المؤمنين بمظهر الإسلام والإصلاح؛ ومن ثم حرصوا أن يدفعوا عن أنفسهم تلك التهمة بأروع أسلوب، وأبلغ بيان، حيث ادعوا أهم مبرؤون من تلك التهمة، وأهم لا ينسبون إليها بحال، وأن أقوالهم وأفعالهم قد تمحضت إصلاحا ونصحاً للمؤمنين، وأن إصلاحهم ونصحهم أمر ظاهر معلوم لا مراء فيه.

قال الشيخ عبد القاهر: "دخلت "إنما" لتدل على أهم حين ادّعوا لأنفسهم أهم مصلحون، أظهروا أهم يدّعون من ذلك أمرا ظاهرا معلوماً، ولذلك أكد الأمر فى تكذيبهم والردّ عليهم، فجمع بين "ألا" الذى هو للتنبيه، وبين "إن" الذى هو للتأكيد، فقيل: "ألا إهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون"(٤٣) ونستطيع أن نقرر من خلال السياق أن حال المنافقين كان مزيجاً بين الشعور بالتهمة ومحاولة الدفع عن أنفسهم بأبلغ جواب وأفصحه، مع ما غلب على أنفسهم من اعتقاد الصلاح والإصلاح فى محاولة منهم لتغييب ضمائرهم، واستمراء باطلهم، فهم قوم قد انتكست فطرهم وانقلبت الحقائق فى أعينهم، فصاروا يرون الحق باطلا، والباطل حقـّا، والإصلاح إفسادا والإفساد إصلاحا.

ومن ثم يقرر الحق سبحانه أهم قد سلبوا الشعور والإدراك: **(أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ)** "يقول: ألا إن هذا الذى يعتمدونه، ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً"(٤٤).

ولذا جاءت الآية بهذا الأسلوب معبرة عن حالهم فهم لغياب شعورهم وإدراكهم يتصورون أن ما يفعلونه إصلاح لا شك فيه، وفى محاولة منهم لدفع التهمة عن أنفسهم يجعلونه بمثابة الأمر الظاهر المعلوم الذى لا ينكر عن طريق قصر أنفسهم على الإصلاح وحده الذى لا تشوبه شائبة فساد ولا إفساد ومن ثم نقرر أن رعاية حال المخاطب لا تنفك عن رعاية حال المتكلم فالمتكلم هنا وإن كان مراعيا حال المخاطب من حيث توكيد الكلام له على هذا النحو لدفع ما اهم به؛ فإن مجيء الأسلوب على هذا النحو إنما يدل فى الوقت نفسه على شعور المتكلم بالتهمة واجتهاده فى دفعها عن نفسه الأمر الذى يستدعى أن يميز كلامه بهذه الخصيصة أو الميزة التعبيرية.

كذلك فقد جاء أسلوب القصر المؤكد فى هذه الآية معبرا من جهة أخرى عن فرط ثقتهم الكاذبة فى أنفسهم أهم لا يكون منهم إلا الإصلاح التام.

ومن ثم نرى من خلال هذا المثال أن الكلام قد يمتزج فيه رعاية الحالين حال المخاطب

وحال المتكلم فى آن واحد امتزاجا تاماً بحيث لا يمكن التفريق بينهما؛ لأن رعاية حال المخاطب تكون فى الوقت نفسه دالة على حال للمتكلم يمثل موقفه تجاه هذا المخاطب، ومن ثم يأتى كلامه معبرًا عن هذا الموقف أو تلك الحالة النفسية التى يكون عليها بطريقة تلقائية لا شعورية يُتعرف منها على خلجات النفوس ومكنون الضمائر.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**﴾(٤٥)

هذه الآية الكريمة تشتمل على وجوه من رعاية حال المتكلم أو مقامه:

الأول: رعاية مقام(٤٦) الحق سبحانه فيما تكلم به عن نفسه سبحانه، وهو يشمل الآية كلها دون قول الذين كفروا.

الثانى: رعاية حال الكفار فيما حكى القرآن عنهم: **(ماذا أراد الله بهذا مثلا)**.

أما الأول فهو يبين مقام(٤٧) الحق سبحانه فى رده على هؤلاء اليهود والمشركين فى استنكارهم أن يضرب الله تعالى المثل بالأشياء الحقيرة.

وهذه الآيات تشى بأن المنافقين الذين ضرب الله لهم مثل الذى استوقد ناراً ومثل الصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق — وربما كان اليهود كذلك والمشركون — قد اتخذوا من ورود هذه الأمثال فى هذه المناسبة، ومن وجود أمثال أخرى فى القرآن المكى الذى سبق نزوله وكان يتلى فى المدينة، كالذى ضربه الله مثلا للذين كفروا بربهم "**كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**".. وكالذى ضربه الله مثلا لعجز آلهتهم المدعاة عن خلق الذباب: "**إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**".

نقول: إن هذه الآيات تشى بأن المنافقين- وربما كان اليهود والمشركون- قد وجدوا فى هذه المناسبة منفذا للتشكيك فى صدق الوحى بهذا القرآن، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لا تصدر عن الله، وأن الله لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت فى كلامه وكان هذا طرفاً من حملة التشكيك والبلبلة التى يقوم بها المنافقون واليهود فى المدينة، كما كان يقوم بها المشركون فى مكة(٤٨).

حيث قالوا : "ما يستحى رب محمد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت"(٤٩).

فجاءت هذه الآيات دفعاً لهذا الدس، وبياناً لحكمة الله فى ضرب الأمثال،

وتحذيراً لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها، وتطميناً للمؤمنين أن ستزيدهم إيماناً.

(**إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها**)"[٥٠].

نلاحظ أن الآية تبدأ بالتوكيد الذى يدل على عظمة المتكلم وجلاله وقوة خطابه وصلابته فى تأكيد أن ما يقرره الحق سبحانه هو الحق الذى لا مرية فيه، وأن حقارة الأشياء أو صغرها لا تمنع رب العزة جل وعلا من ضرب المثل بها تعليما لعباده وبيانا لهم، وهل يستحى الخالق من خلقه الذى هو دليل إعجازه؟

لا سيما أن المعجزة واحدة فى الصغير والكبير، وهى معجزة الخلق والحياة والروح التى تدب فى كل كائن حى صغير أو كبير دون أن يقف أحد على كنهها وحقيقتها ﴿**ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾[٥١].

"فالله رب الصغير والكبير، وخالق البعوضة والفيل، والمعجزة فى البعوضة هى ذاتها المعجزة فى الفيل. إنها معجزة الحياة. معجزة السر المغلق الذى لا يعلمه إلا الله. على أن العبرة فى المثل ليست فى الحجم والشكل، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير. وليس فى ضرب الأمثال ما يعاب وما من شأنه الاستحياء من ذكره. والله -جلت حكمته- يريد بها اختبار القلوب، وامتحان النفوس"[٥٢].

وهذا التوكيد وإن كان قد روعى فيه حال المخاطبين المنكرين أو المتشككين؛ فإنه فى الوقت نفسه قد جاء رعاية لمقام المتكلم سبحانه تعظيما وتوقيرا وإجلالاً وتنزيها لنفسه سبحانه عما يدعيه الكافرون.

ومما يدل على رعاية مقام المتكلم كذلك فى الآية: مبالغة رب العزّة جل وعلا فى اختيار أعظم الأشياء التى يضرب بها المثل احتقارا وضآلة ليمثل بها، ويبين أنه لا يستحى من ذكرها إمعانا فى تحدّى هؤلاء الكافرين، وإمعانا فى توبيخهم وعدم الالتفات إلى سخافاتهم، بل على العكس من ذلك يبالغ فى تقرير ما نفوه وما لم يرضوا به غير عابىء بما تمليه عقولهم وقلوبهم المريضة.

ويظهر ذلك كله من اختيار كلمة (بعوضة) وهى من أصغر الحشرات وأحقرها، ثم الترقى إلى ذكر ما فوقها (والمراد بالفوقية إما الزيادة فى حجم الممثل به فهو ترق من الصغير للكبير، وبه قال ابن عباس، أو الزيادة فى المعنى الذى وقع التمثيل فيه، وهو الصغر والحقارة؛ فهو تنزل من الحقير للأحقر"[٥٣]. وهذا الأخير هو ما نرجحه لدلالة السياق عليه، فهو إمعان فى التحدى، ومبالغة فى الاستهزاء بالكفار وعدم المبالاة بأفكارهم واعتقاداتهم الفاسدة.

ومما يتعلق بمقام المتكلم فى هذه الآية كذلك قوله سبحانه وتعالى "**فأما.. وأمّا**" فى بيان حال كل من الفريقين المؤمنين والكافرين "وأما" حرف فيه معنى الشرط ولذلك

يجاب بالفاء وفائدته فى الكلام أن يعطيه فضل توكيد تقول زيد ذاهب فإذا قصدت توكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت أما زيد فذاهب ولذلك قال سيبويه فى تفسيره مهما يكن من شيء فزيد ذاهب وهذا التفسير مدل لفائدتين بيان كونه توكيدا وأنه فى معنى الشرط ففى إيراد الجملتين مصدرتين به وإن لم يقل فالذين آمنوا يعلمون والذين كفروا يقولون إحماد عظيم لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم أنه الحق ونعى على الكافرين إغفالهم حظهم وعنادهم ورميهم بالكلمة الحمقاء(٥٤).

وقد التفت الزمخشرى فى هذا النص السابق إلى رعاية الآية مقام المتكلم سبحانه، وبيان ذلك فى الخصائص الأسلوبية للآية التى طابقت بها هذا المقام فالمقام هنا كما بينه الزمخشرى هو مقام إحماد لأمر المؤمنين، ونعى على الكافرين، وهو ما أفاده التوكيد الذى دلّت عليه (أما) فى الموضعين.

هذا بالنسبة للموضع الأول وهو رعاية مقام المتكلم سبحانه، أما بالنسبة للموضع الثانى، وهو رعاية حال الكافرين الذين حكى القرآن كلامهم فى قولهم: **"ماذا أراد الله بهذا مثلاً"** فإنه واضح الدلالة فى الكشف عن حال هؤلاء الكافرين وسوء أدبهم مع الله تعالى، وجرأتهم عليه، وتبجحهم فى مقالتهم، وقد جاءت صياغة الآية مطابقة لحال هؤلاء المتكلمين بهذه المقولة، فالاستفهام هنا (استفهام إنكار، أى: بمعنى النفى)(٥٥).

فقولهم: **"ماذا أراد الله بهذا مثلا"** استرذال واستحقار كما قالت عائشة – رضى الله عنها– فى عبد الله بن عمرو بن العاص: "يا عجبا لابن عمرو هذا"(٥٦).

فالإشارة فى الموضعين إنما أريد بها التحقير والاستهجان والاسترذال.

وكفى بذلك دلالة على حالهم فى حديثهم عن كلام الله تعالى مما هو عليه من الجرأة والوقاحة وسوء الأدب مع الله تعالى. فسؤالهم هذا "سؤال المحجوب عن نور الله..

وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته، المقطوع الصلة بسنة الله وتدبيره. ثم هو سؤال من لا يرجو لله وقارا، ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرب. يقولونها فى جهل وقصور فى صيغة الاعتراض والاستنكار، أو فى صورة التشكيك فى صدور مثل هذا القول عن الله(٥٧).

ومهما يقال فى توجيه هذا الأسلوب الإنشائى **(ماذا أراد الله بهذا مثلا)** إلى رعاية حال المخاطب؛ فإنه يبقى واضح الدلالة وصريحها فى رعاية حال المتكلم فهى كلمة تهكم وسخرية واستهزاء تعبر عن كفره وسوء معتقده.

ولعله لا يخاطب أحداً بل يقولها مع نفسه عند سماعه لتلك الأمثال القرآنية.

فمن الأمثلة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ**﴾(٥٨).

هذا جزء من سياق طويل فى سورة البقرة يعدد الله تعالى فيه جرائم بنى إسرائيل، وتعنتهم وسوء أدبهم مع رسولهم موسى عليه السلام، وكلامهم هنا جاء معبرا تمام التعبير ومطابقا لحال نفوسهم الغليظة الجاسية التى لا تؤمن بعالم الغيب، ولا تعرف إلا ما تحسه بجوارحها، فليس لديهم شفافية الروح النافذة خلف حجب المادة، والطافية فوق كثافتها.

ولكن إسرائيل هى إسرائيل هى هى كثافة حس، ومادية فكر، واحتجابا عن مسارب الغيب.. فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة، والذى طلب هذا هم السبعون المختارون منهم، الذين اختارهم موسى لميقات ربه- الذى فصلت قصته فى السور المكية من قبل- ويرفضون الإيمان لموسى إلا أن يروا الله عيانا. والقرآن يواجههم هنا بهذا التجديف الذى صدر من آبائهم، لينكشف تعنتهم القديم الذى يشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم، وطلبهم الخوارق منه، وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب الخوارق للتثبت من صدقه:

﴿**وإذ قلتم: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون. وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى. كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾.. إن الحس المادى الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة.. أم لعله التعنت والمعاجزة..

والآيات الكثيرة، والنعم الإلهية، والعفو والمغفرة.. كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية، التى لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتى تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحى بأن فترة الإذلال التى قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرهم إفسادا عميقا. وليس أشد إفسادا للفطرة من الذل الذى ينشئه الطغيان الطويل، والذى يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمردا حين يرفع عنها السوط، وتبطرا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة.. وهكذا كانت إسرائيل، وهكذا هى فى كل حين..

ومن ثم يجدفون هذا التجديف. ويتعنتون هذا التعنت:

﴿**وإذا قلتم: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون**﴾(٥٩).

ومما يدل على مطابقة الصياغة التعبيرية فى هذه الجملة لحال اليهود المتكلمين بها:

قولهم: (يا موسيٍ) فيه من الجرأة وسوء الأدب مع نبيهم ما فيه، حيث نادوه باسمه لا بالرسالة أو النبوة إشعارا بتعليق الإيمان بذلك على تحقق ما طلبوه منه تعجيزا أو تعنتا.

قولهم: (لن نؤمن) نفوا إيمانهم فى الاستقبال على الدوام نفيا قاطعا إن لم يتحقق لهم مطلوبهم مما يدل على تعنتهم.

قولهم: (نؤمن لك) اللام من (لك) إما لام الأجل، أو للتعدية بتضمين معنى الإقرار على أن موسى مقرٌّ له، والمقر به محذوف، وهو أن الله تعالى أعطاه التوراة، أو أن الله تعالى كلمه فأمره ونهاه"(٦٠).

وعلى كلا المعنيين فهى دالة على الجرأة والسفاهة وسوء الأدب مع نبيهم، فعلى المعنى الأول: (لن نؤمن لك أى لأجلك) ففيها عدم توقيرهم لنبيهم وضعف مكانته ومحبته فى نفوسهم، فهم لن يؤمنوا لأجله.

والحق أن فى أخلاق الرسول العظيم، والنبى الكريم ما يجعل أتباعه يؤمنون لأجله لمن عقل أن مثل هذا الخلق، ومثل هذا الكرم والفضل لا يكون إلا لنبى مرسل من عند الله، ولكن اليهود لا يعقلون.

وأما على المعنى الثانى: أى (لن نقر لك) على أن تكون اللام لمجرد التعدية، فهى ظاهرة فى الدلالة على الجرأة والتعنت والتعجيز.

قولهم: **(حتى نرى الله جهرة)** أكدوا الرؤية بكونها جهرة ومعنى (جهرة: عيانا، وهى مصدر من قولك: جهر بالقراءة والدعاء، كأن الذى يرى بالعين جاهر بالرؤية، والذى يرى بالقلب مخافت بها، وانتصابها علم المصدر لأنها نوع من الرؤية، فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس(٦١) أو على الحال بمعنى ذوى جهرة، وقرئ "جهرة" بفتح الهاء، وهى إما مصدر كالغلبة، وإما جمع جاهر"(٦٢).

وهذا كله واضح فى الدلالة على تعنتهم مع نبيهم وتجرئهم عليه واشتراطهم عليه شروطا وقيودا حتى يؤمنوا به فقد اشترطوا رؤية الله، واشترطوا أن تكون رؤية حسّ جهرة لا رؤية قلب ولا منام(٦٣) أو يكون المعنى أنهم قالوا ذلك مجاهرين به غير مستحيين ولا مبالين بشأن نبيهم وما يليق به من وجوب التأدب فى خطابه، فيكون المعنى: (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله مجاهرين بقولهم هذا غير مخافتين ولا مستحيين).

ومن ثم نتبين كيف جاءت الآية رعاية لحال المتكلمين مطابقة لذلك الحال أتم المطابقة.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(٦٤).

الأسلوب فى هذه الآية شبيه بالآية السابقة(٦٥)، ويزيد عليه فى دلالته على حال المتكلم دلالته على الضيق والضجر والتبرم بابتلاء الله تعالى لهم وكراهيتهم للصبر على أمره(٦٦) وجحودهم لنعمه فهو ينزل عليهم المن والسلوى يحصلونهما بلا عناء ولا مشقة وهما طعامان طيبان لذيذان، ولكن نفوسهم الدنيئة البطرة تتبطر على نعمة الله تعالى أشرا وبطرا وضجرا، ويعلنون ذلك فى جرأة تامة وعدم مبالاة وتبجح واضح بهذا الأسلوب الدال على النفى القاطع فى المستقبل: (**لن نصبر على طعام واحد**) وتتوالى الدلالات فى الآية على سوء أدبهم مع الله تعالى ومع النبى عليه السلام فى قولهم: (**فادع لنا ربك**) فقولهم: (ربك) بصيغة المخاطب المفرد، يلمح إلى استنكافهم عن الاعتراف بربوبيته حتى ينجز لهم ما سألوه، فكأنه سبحانه رب موسى وحده، لا ربهم ورب كل شىء.

وفى تعدادهم لما (**تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها**) دال على مدى ما بلغوه من الدناءة وسوء الأدب واللجاجة والإلحاح فى الطلب والتعنت فيه. فلو أنهم سألوا الله تعالى أن يكثر لهم الخير، ويبارك لهم فى الرزق، لأعطاهم ما ينفعهم ويصلحهم، ولكنهم أخذوا يقترحون على الله وعلى نبيهم ويعددون ما تهفو إليه النفوس الدنيئة من دنىء الطعام، ولذلك كان جواب رسولهم عليه السلام لهم حكيما حيث قال: "**أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم**".

وقد جاء هذا الكلام أيضا مراعيا لحال المتكلم وهو- هنا- موسى عليه السلام فتصدير الكلام بهمزة الاستفهام دال على استنكاره(٦٧) وتعجبه لطلبهم ودنو نفوسهم وانشغالهم عما انتدبهم الله تعالى إليه من معالى الأمور وعظيمها.

وقوله: (**اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم**) يدل على عدم عبئه بكلامهم واحتقاره له فهو (إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق، فحق موفور فى أى مصر من الأمصار، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوا فيها.... وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التى أخرجتم منها..... عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة إلى حياتكم الخانعة الذليلة... حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التى ندبتم لها... ويكون هذا من موسى عليه السلام- تأنيباً لهم وتوبيخاً... (٦٨) وهذا هو المترجح لدينا بدلالة السياق

فكأنه ردهم لمصر التى تعودوا الذلة والدناءة فيها على يد فرعون فلما تاقت نفوسهم لما تركزه فيها، أمروا بالرجوع إليها تأنيباً وتوبيخا وتقريعاً(٦٩).

ومن ثم ترى كيف راعت الآية حال المتكلم من أكثر من وجه كما رأينا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾(٧٠).

تتحدث هذه الآيات عن بنى إسرائيل وطبيعتهم الملتوية، وتكشف عن تعنتهم وتلكؤهم فى تنفيذ الأوامر الإلهية، وجرأتهم وسوء أدهم مع رسولهم، ويظهر ذلك كله على ألسنة بنى إسرائيل المتكلمين بهذا الكلام الذى تحكيه الآيات عنهم.

"إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة فى قصة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ فى الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان! لقد قال لهم نبيهم: "**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**".. وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفى للاستجابة والتنفيذ. فنبيهم هو زعيمهم الذى أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه إنما هو أمر الله، الذى يسير بهم على هداه.. فماذا كان الجواب؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله -فضلاً على أن يكون رسول الله- أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس "**قالوا أتتخذنا هزواً؟**" (٧١) وهذا يدل على وضوح رعاية الآيات لحال هؤلاء المتكلمين، ويظهر ذلك جليا من خلال الوسائل التعبيرية المتعددة فى هذه الآيات.

فهمزة الاستفهام فى قولهم (**أتتخذنا هزوا**) تفيد استبعادهم واستخفافهم بأمر نبيهم(٧٢)، واستنكارهم لما أمرهم به، وهذا يطابق حال المتكلمين بهذا من بنى إسرائيل؛ وذلك لأن "إجابتهم نبيهم حين أخبرهم عن أمر الله بأن يذبحوا بقرة بقولهم أتتخذنا هزوا دليل على سوء عقيدتهم فى نبيهم وتكذيبهم له، إذ لو علموا أن ذلك إخبار صحيح عن الله تعالى لما كان جوابهم إلا امتثال الأمر، وجوابهم هذا كفر بموسى، وقال

الاستجابة لرسل الله، والاكتفاء بكلامهم عن تكليمه سبحانه لهم، مع عدم تأهلهم لذلك أو استحقاقهم له.

قال الزمخشرى: "(**لولا يكلمنا الله**) هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى استكبارا منهم وعتواً"(٨٣).

ومن ثم جاء هذا الأسلوب الإنشائى المشتمل على التحضيض والطلب مراعيا تمام الرعاية حال المتكلمين وما هم عليه من استكبار وجرأة على الله تعالى وجحود لآياته.

وكذلك عدّ الزمخشرى قولهم: (**أو تأتينا آية**) "جحودا لأن يكون ما آتاهم من آيات الله آيات واستهانة بها" فهم يستصغرون تلك الآيات التى جاءت بها الرسل ويحتقرونها ويطلبون الآيات العظام التى تعد آيات عندهم كطلوع الشمس من غروبها ونحو ذلك.

وهذا دال على جحود ما جاءت به الرسل من الآيات، ودلّ ما سبق على جحود دعوة الرسل أنفسهم واستهانتهم بكل من الرسل والآيات التى أرسلوا بها.

ومن ثم جاءت الآية مراعية حال المتكلمين دالة على دخيلة نفوسهم وما تنطوى عليه من جحود وتكذيب واستهانة واستكبار.

ومن ذلك، قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٨٤).

هذه الآيات فيها من رعاية حال المتكلم ما يرسم صورة واضحة لشخصية هذا النبى الكريم، وما انطوت عليه نفسه من الإخلاص والإنابة والإشفاق والخوف من الجليل، والتذلل والتواضع لعظمته، والرغبة فيما عنده، ومحبة المؤمنين وولائه لهم، وكراهية الكافرين وبرائه منهم.

فاجتمع فى قلبه من الخوف والطمع، والرغبة والرهبة والولاء والبراء ما يشهد له بصدق التوحيد والإيمان، وصدق العبودية لله تعالى، وقد تجلى ذلك فى تصوير الآيات لتلك الحال من خلال مناجاة إبراهيم عليه السلام لربه.

وهذا واضح تمام الوضوح فى دعاء إبراهيم عليه السلام ربه، ومناداته بصفة الربوبية التى تشعر بخضوع العبد وإقراره بمالكية الله تعالى له، وانفراده بتدبير أمره

والقيام عليه وهيمنته عليه وعلى كل شيء.

فالرب هو المالك للشيء، وهو مدبر الأمر ومصلحه والمتصرف فيه[٨٥].

ويأتي هذا الإقرار بالربوبية مناسباً أتم المناسبة لما يتبعه من الطلب في قوله (اجعل هذا بلداً آمنا) و(ارزق أهله من الثمرات) فالذى بيده إصلاح هذا البلد، وجعله على خير حال، وتأمين أهله، ورزقهم من الثمرات.. هو الرب المالك للأمر ومصلحه ومدبره، وفى قصر إبراهيم الرزق فى دعائه على من آمن بالله واليوم الآخر دلالة واضحة على ما استقر وثبت فى قلب إبراهيم عليه السلام من محبة الخير للمؤمنين وولائه لهم، وكراهية الكافرين والتبرؤ منهم، كيف وقد تبرأ إبراهيم من أبيه لما تبين له أنه عدو لله! **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه؛ إن إبراهيم لأواه حليم﴾**[٨٦]

وهذا موقف آخر تصوره الآيات ليضيف بعداً جديداً من حقائق الإيمان، وصفات المتقين فى شخص هذا النبى الكريم. فهو يبذل أقصى جهده، وقد أدركه العناء والتعب على شيخوخته وكبر سنه، وهو يرفع القواعد من البيت وإسماعيل يناوله الحجارة فى بنائه للبيت، وهجّيراه ودعاؤه الذى لا دعاء له غيره "**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**" إنها قمة العبودية، وقمة الإشفاق من الله تعالى والتذلل للعظمة، والتواضع بين يديه إنها الشفافية المرهفة فى هضم العبد لذاته واستصغار عمله فى سبيل الله تعالى.

فإبراهيم لا هم له سوى أن يتقبل الله تعالى عمله، وأن يخلصه من الآفات والمحبطات من العجب والفخر والرياء حتى يحوز قبول سيده ومولاه وحينما يعن لإبراهيم عليه السلام أن يردف دعاءه بدعاء آخر، فهو لا يدعو لنفسه ولا لولده بشيء من الدنيا، ولا يطلب على عمله شيئا من الأجر فى العاجلة، وإنما طلبه الوحيد:

"**ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم**".

إنه الولاء التام لهذا الدين، والولاء التام للأمة المسلمة، والذرية المسلمة إلى يوم الدين، إنها إرادة الخير الحق للعالمين.

ولقد أثمرت تلك الدعوة رحمة للعالمين فكانت بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- إجابة من الله تعالى لدعوة إبراهيم عليه السلام.

وحينما نضم إلى هذه الآية ما ورد فى القرآن من بيان استجابة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فى دعوته- يتبين لنا صورة أخرى من صور مراعاة القرآن لحال المتكلم بهذا الدعاء وهو ذلك البشر الكريم إبراهيم الخليل عليه السلام.

نماذج مختارة لرعاية حال المتكلم
في سورة يوسف

من أمثلة رعاية حال المتكلم فى سورة يوسف:

١-قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأبيه يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ**﴾[٩١].

فتعبير يوسف –عليه السلام- بـ"**يا أبت**" أسلوب إنشائى غرضه الاستعطاف، وفيه من رعاية حال المتكلم ولجوئه إلى أبيه وارتكانه إلى نصحه وعلمه ما فيه؛ فهو أولى من يقص عليه رؤيته لأنه أكثر الناس حبًّا له وشفقة عليه، بخلاف إخوته الذين يحقدون عليه، ومن المعلوم أن الرؤيا يستجب أن تقص على محبى الرائى.

كذلك فإن التوكيد بـ"إن" فى قوله: ﴿**إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا**﴾ لا يمكن تنزيله على مخاطب منكر أو متردد فى قبول الخبر، وذلك لأن يوسف –عليه السلام- ليس محلّ شك أو تكذيب عند أبيه، كما أن الزعم بأنه نزل غير المنكر أو غير الشاك المتردد منزلة أحدهما كلام متكلف لا دليل عليه.

فلم يبق إلا أن يحمل هذا التوكيد على رعاية حال المتكلم نفسه وأن توكيده ليس لحال المخاطب من حيث الإنكار أو الشك، وإنما جاء هذا التوكيد معبرًا عن مدى استعظام يوسف –عليه السلام- لهذا الأمر وتعجبه ودهشته فيه.

كما نلمح مظهرًا آخر من مظاهر التوكيد فى الآية، وهو التوكيد بتكرار الفعل (رأيت) مع الضمير (هم) العائد على المرئى المذكور وهو أحد عشر كوكبًا، وهو صورة من صور الإطناب كذلك، و لم يكن الغرض من هذا الإطناب بالتوكيد بالضرورة إقناع المخاطب أو إزالة شكه أو تردده أو إنكاره بقدر ما كان تعبيرًا عن مدى العجب والدهشة لدى المتكلم التى عبر عنها بهذا الإطناب بتكرار الفعل وتأكيده الذى يمكن أن نتصور إيراده لإزالة شك المتكلم نفسه فيما يندهش له أكثر من كونه مُوردًا لإزالة شك المخاطب.

كما أن جواب يعقوب عليه السلام له فى قوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا بُنَى لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ للإِنْسَان عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾[٩٢].

وإن جاء مراعيًا حال المخاطب يوسف –عليه السلام- بما اشتمل عليه من وسائل التوكيد والتحذير؛ فإنه جاء مراعيًا حال المتكلم كذلك حيث دلّ على شدّة حب يعقوب لابنه يوسف –عليهما السلام- كما يكشف عن تلطفه له، وحرصه على إقناعه، مبرزًا العاقبة ثم سببها، ويكشف كذلك عن واسع خبرته بأبنائه وخلجات نفوسهم، مما يجعله يوقن برد فعلهم إزاء شيء لم يحدث بعد.

فكأنه ردهم لمصر التى تعودوا الذلة والدناءة فيها على يد فرعون فلما تاقت نفوسهم لما تركوه فيها، أمروا بالرجوع إليها تأنيباً وتوبيخا وتقريعاً[٦٩].

ومن ثم ترى كيف راعت الآية حال المتكلم من أكثر من وجه كما رأينا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[٧٠].

تتحدث هذه الآيات عن بنى إسرائيل وطبيعتهم الملتوية، وتكشف عن تعنتهم وتلكؤهم فى تنفيذ الأوامر الإلهية، وجرأتهم وسوء أدبهم مع رسولهم، ويظهر ذلك كله على ألسنة بنى إسرائيل المتكلمين بهذا الكلام الذى تحكيه الآيات عنهم.

"إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة فى قصة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ فى الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان! لقد قال لهم نبيهم: "**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**".. وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفى للاستجابة والتنفيذ. فنبيهم هو زعيمهم الذى أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه إنما هو أمر الله، الذى يسير بهم على هداه.. فماذا كان الجواب؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاما لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله -فضلاً على أن يكون رسول الله- أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس "**قالوا**

فكأنه ردهم لمصر التى تعودوا الذلة والدناءة فيها على يد فرعون فلما تاقت نفوسهم لما تركوه فيها، أمروا بالرجوع إليها تأنيباً وتوبيخا وتقريعاً[٦٩].

ومن ثم ترى كيف راعت الآية حال المتكلم من أكثر من وجه كما رأينا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[٧٠].

تتحدث هذه الآيات عن بنى إسرائيل وطبيعتهم الملتوية، وتكشف عن تعنتهم وتلكؤهم فى تنفيذ الأوامر الإلهية، وجرأتهم وسوء أدبهم مع رسولهم، ويظهر ذلك كله على ألسنة بنى إسرائيل المتكلمين بهذا الكلام الذى تحكيه الآيات عنهم.

"إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة فى قصة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ فى الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان! لقد قال لهم نبيهم: "**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**".. وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفى للاستجابة والتنفيذ. فنبيهم هو زعيمهم الذى أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه إنما هو أمر الله، الذى يسير بهم على هداه.. فماذا كان الجواب؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله -فضلاً على أن يكون رسول الله- أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس "**قالوا أتتخذنا هزواً؟**" [٧١] وهذا يدل على وضوح رعاية الآيات لحال هؤلاء المتكلمين، ويظهر ذلك جليا من خلال الوسائل التعبيرية المتعددة فى هذه الآيات.

فهمزة الاستفهام فى قولهم (**أتتخذنا هزوا**) تفيد استبعادهم واستخفافهم بأمر نبيهم[٧٢]، واستنكارهم لما أمرهم به، وهذا يطابق حال المتكلمين بهذا من بنى إسرائيل؛ وذلك لأن "إجابتهم نبيهم حين أخبرهم عن أمر الله بأن يذبحوا بقرة بقولهم أتتخذنا هزوا دليل على سوء عقيدتهم فى نبيهم وتكذيبهم له، إذ لو علموا أن ذلك إخبار صحيح عن الله تعالى لما كان جوابهم إلا امتثال الأمر، وجوابهم هذا كفر بموسى، وقال

بعض الناس: كانوا مؤمنين مصدقين، ولكن جرى هذا على نحو ما هم عليه من غلط الطبع والخفاء والمعصية"(٧٣).

كذلك تظهر رعاية حال المتكلم فى قولهم: **"ادع لنا ربك يبين لنا ما هى!"** فهذا الطلب منهم لنبيهم يكشف عن حال تعنتهم ولجاجتهم وتلكؤهم فى الاستجابة لله ورسوله، فهم يطلبون أن تبين لهم الماهية رغم أن نبيهم قد أخبرهم عن ماهية المطلوب من قبل، وأنه بقرة، وهذا المطلوب هو تكليف إلهى حكيم جاء بلفظ مطلق يصدق على أى بقرة كانت، ولكنها لجاجة بنى إسرائيل.

"نعم، لقد كان فى وسعهم – وهم فى سعة من الأمر- أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، منفذون لإشارة رسوله. ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم، فإذا هم يسألون: **"قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟"**.. والسؤال بهذه الصيغة يشى بأنهم ما يزالون فى شكهم أن يكون موسى هازئا فيما أنهى إليهم فهم أولا: يقولون: **"ادع لنا ربك"**.. فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعنى موسى وربه وهم ثانيا: يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم: "ما هى؟" والسؤال عن الماهية فى هذا المقام- وإن كان المقصود الصفة- إنكار واستهزاء.. ما هى؟ إنها بقرة. وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة. بقرة وكفى(٧٤).

ويتكرر الطلب الدال على اللجاجة والتعنت من بنى إسرائيل بهذا الأسلوب نفسه الدال على عدم العبء والاهتمام وعدم الرضا بربوبية الله تعالى لهم فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، فيتكرر الطلب مرارًا : **"ادع لنا ربك يبين لنا ما هى؟"**، **"ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟"**، **"ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون"**.

وهكذا لجاجة متناهية "ولقد كان فيما تلكئوا كفاية، ولكنهم يمضون فى طريقهم، يعقدون الأمور، ويشددون على أنفسهم، فيشدد الله عليهم. لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية:

"قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي"..

ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مشكل: "إن البقر تشابه علينا"..

وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة. فهم يقولون:

"وإنا إن شاء الله لمهتدون"..(٧٥)

هذا وبعد أن يخبرهم رسولهم بما طلبوه وسألوا عنه من أوصاف البقرة المخصوصة المعينة التى تسببوا بكثرة أسئلتهم فى التضييق عليهم بتخصيصها وتعيينها، بعد ما أخبرهم نبيهم بتلك الأوصاف التى لا تصدق إلا على بقرة واحدة لا يحصلونها إلا بثمن غال باهظ

وهو ملء جلدها ذهبا"[٧٦]، أقروا حينئذ فقط أن رسولهم قد جاءهم بالحق.

"قالوا الآن جئت بالحق"، الآن فقط، "الآن! كأنما كان كل ما مضى ليس حقاً، أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة!"[٧٧]

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾[٧٨].

هذا من جملة الأماني وهي الأكاذيب التي أخذوها تقليدا من شياطينهم المحرفين[٧٩] التي يمنى بها الإسرائيليون أنفسهم ليستمرئوا ما هم فيه من الباطل ويتمادوا فيه. فليفعلوا ما شاءوا وليأتوا ما شاءوا من الذنوب والجرائم ما داموا لن يعذبوا في النار إلا أربعين يوما مدة عبادتهم العجل، أو سبعة أيام عن كل ألف عام من عمر الدنيا يوما لاعتقادهم أن عمر الدنيا سبعة آلاف[٨٠].

ومن ثم يأتون بهذا النفي المؤبد القاطع لما يكون من العذاب في الآخرة (**لن تمسنا النار**) وهذا النفي يدل على مدى بلوغ الأماني الكاذبة في نفوسهم، ومدى اغترارهم وتبجحهم وافترائهم الكذب على الله ورسله.

وتظهر رعاية حالهم السابق أيضا في تقييدهم أيام العذاب بأنها (معدودة) أي محصورة قليلة، وكنى بالمعدودة عن القليلة لما أن الأعراب لعدم علمهم بالحساب وقوانينه تصوروا القليل متيسر العدد، والكثير متعسره، فقالوا: شيء معدود- أي: قليل- وغير معدود- أي: كثير"[٨١].

وبهذا نتبين كيف دلّ أسلوب الحصر في الآية عن طريق النفي والاستثناء على نفسية هؤلاء المتكلمين وحالهم من حيث السخرية والاستخفاف بما توعدوا به من العذاب.

ومعلوم أن هذا الحصر الوارد في الآية والذي أريد به تأكيد قلّة أيام العذاب في النار لم يخاطب به أحد، وإنما هو مسوق بالأصالة تعبيرًا عن حال المتكلمين أنفسهم الذين أرادوا بذلك أن يملوا لأنفسهم فيما هم سادرون فيه من الغي، وأن يهونوا على أنفسهم ما ينتظرهم من العذاب الأبدي الأليم عند ربهم بأسلوب الحصر المفيد لتأكيد قلة هذا العذاب وتهوينه.

ومن ذلك: قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٨٢]

هذا الطلب بأسلوب التحضيض الإنشائي دال على مدى جرأتهم على الله؛ لاستعجالهم آياته وطلب تكليمه إياهم ومجابهتهم. ويدل عليه (لولا) الدالة على التحضيض والطلب وتعجل الأمر. وفي ذلك كله ما فيه من استكبار نفوسهم عن

الاستجابة لرسل الله، والاكتفاء بكلامهم عن تكليمه سبحانه لهم، مع عدم تأهلهم لذلك أو استحقاقهم له.

قال الزمخشرى: "(**لولا يكلمنا الله**) هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى استكبارا منهم وعتواً"(٨٣).

ومن ثم جاء هذا الأسلوب الإنشائى المشتمل على التحضيض والطلب مراعيا تمام الرعاية حال المتكلمين وما هم عليه من استكبار وجرأة على الله تعالى وجحود لآياته.

وكذلك عدّ الزمخشرى قولهم: (**أو تأتينا آية**) "جحودا لأن يكون ما آتاهم من آيات الله آيات واستهانة بها" فهم يستصغرون تلك الآيات التى جاءت بها الرسل ويحتقروها ويطلبون الآيات العظام التى تعد آيات عندهم كطلوع الشمس من غروبها ونحو ذلك.

وهذا دال على جحود ما جاءت به الرسل من الآيات، ودلّ ما سبق على جحود دعوة الرسل أنفسهم واستهانتهم بكل من الرسل والآيات التى أرسلوا بها.

ومن ثم جاءت الآية مراعية حال المتكلمين دالة على دخيلة نفوسهم وما تنطوى عليه من جحود وتكذيب واستهانة واستكبار.

ومن ذلك، قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٨٤).

هذه الآيات فيها من رعاية حال المتكلم ما يرسم صورة واضحة لشخصية هذا النبى الكريم، وما انطوت عليه نفسه من الإخلاص والإنابة والإشفاق والخوف من الجليل، والتذلل والتواضع لعظمته، والرغبة فيما عنده، ومحبة المؤمنين وولائه لهم، وكراهية الكافرين وبرائه منهم.

فاجتمع فى قلبه من الخوف والطمع، والرغبة والرهبة والولاء والبراء ما يشهد له بصدق التوحيد والإيمان، وصدق العبودية لله تعالى، وقد تجلى ذلك فى تصوير الآيات لتلك الحال من خلال مناجاة إبراهيم عليه السلام لربه.

وهذا واضح تمام الوضوح فى دعاء إبراهيم عليه السلام ربه، ومناداته بصفة الربوبية التى تشعر بخضوع العبد وإقراره بمالكية الله تعالى له، وانفراده بتدبير أمره

والقيام عليه وهيمنته عليه وعلى كل شيء.

فالرب هو المالك للشيء، وهو مدبر الأمر ومصلحه والمتصرف فيه[٨٥].

ويأتي هذا الإقرار بالربوبية مناسباً أتم المناسبة لما يتبعه من الطلب في قوله (اجعل هذا بلداً آمنا) و(ارزق أهله من الثمرات) فالذى بيده إصلاح هذا البلد، وجعله على خير حال، وتأمين أهله، ورزقهم من الثمرات.. هو الرب المالك للأمر ومصلحه ومدبره، وفي قصر إبراهيم الرزق في دعائه على من آمن بالله واليوم الآخر دلالة واضحة على ما استقر وثبت في قلب إبراهيم عليه السلام من محبة الخير للمؤمنين وولائه لهم، وكراهية الكافرين والتبرؤ منهم، كيف وقد تبرأ إبراهيم من أبيه لما تبين له أنه عدو لله! **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه؛ إن إبراهيم لأواه حليم﴾**[٨٦]

وهذا موقف آخر تصوره الآيات ليضيف بعداً جديداً من حقائق الإيمان، وصفات المتقين في شخص هذا النبي الكريم. فهو يبذل أقصى جهده، وقد أدركه العناء والتعب على شيخوخته وكبر سنه، وهو يرفع القواعد من البيت وإسماعيل يناوله الحجارة في بنائه للبيت، وهجّيراه ودعاؤه الذى لا دعاء له غيره "**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**" إنها قمة العبودية، وقمة الإشفاق من الله تعالى والتذلل للعظمة، والتواضع بين يديه إنها الشفافية المرهفة في هضم العبد لذاته واستصغار عمله في سبيل الله تعالى.

فإبراهيم لا هم له سوى أن يتقبل الله تعالى عمله، وأن يخلصه من الآفات والمحبطات من العجب والفخر والرياء حتى يحوز قبول سيده ومولاه وحينما يعن لإبراهيم عليه السلام أن يردف دعاءه بدعاء آخر، فهو لا يدعو لنفسه ولا لولده بشيء من الدنيا، ولا يطلب على عمله شيئا من الأجر في العاجلة، وإنما طلبه الوحيد:

"**ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم**".

إنه الولاء التام لهذا الدين، والولاء التام للأمة المسلمة، والذرية المسلمة إلى يوم الدين، إنها إرادة الخير الحق للعالمين.

ولقد أثمرت تلك الدعوة رحمة للعالمين فكانت بعثة محمد –صلى الله عليه وسلم– إجابة من الله تعالى لدعوة إبراهيم عليه السلام.

وحينما نضم إلى هذه الآية ما ورد في القرآن من بيان استجابة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام في دعوته– يتبين لنا صورة أخرى من صور مراعاة القرآن لحال المتكلم بهذا الدعاء وهو ذلك البشر الكريم إبراهيم الخليل عليه السلام.

فإبراهيم عليه السلام مهما بلغ من المكانة عند الله تعالى فهو فى نهاية الأمر بشر يصيب ويخطئ فيما لم ينـزل عليه فيه وحى.

والآيات القرآنية تكشف عن هذه البشرية فى حال المتكلم إبراهيم عليه السلام، وتتميز هذه البشرية حينما تقارن بكلام الحق سبحانه وتعالى فى الصدد نفسه.

فإبراهيم يسأل الله تعالى أن يقصر الأمن والرزق على من آمن بالله واليوم الآخر.

وهذا وإن دلّ على صدق إيمانه وولائه وبرائه، فإنه يدل فى الوقت نفسه على بشريته التى تتمايز عن طبيعة الإله الكريم الجواد الفياض الذى لا حد لعطائه وجوده.

فالله تعالى يستجيب لإبراهيم دعوته وزيادة لم يسألها إبراهيم عليه السلام.

تتضح فى إجابة الحق تبارك وتعالى: "**قال ومن كفر**" قال ابن كثير (رحمه الله): قال ابن عباس (رضى الله عنهما): "كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنـزل الله: ومن كفر أيضا أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقاً لا أرزقهم؟ أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس: "**كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا**"(٨٧).

وأمر آخر فى دعاء إبراهيم يكشف عن هذه البشرية التى تصيب وتخطئ ما لم يساندها وحى السماء، وذلك فى دعائه: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم**﴾.

إذا ما تأملنا إجابة الله تعالى لهذه الدعوة وجدنا أن الله تعالى قد أنـزل إجابته لهذه الدعوة فى ثلاثة مواضع من القرآن لا رابع لها، وهذه المواضع هى:

١-قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون**﴾(٨٨).

٢-قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**﴾(٨٩).

٣-قوله تعالى فى سورة الجمعة: ﴿**هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**﴾(٩٠).

نماذج مختارة لرعاية حال المتكلم
فى سورة يوسف

من أمثلة رعاية حال المتكلم فى سورة يوسف:

١-قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ**﴾(٩١).

فتعبير يوسف –عليه السلام- بـ"**يا أبت**" أسلوب إنشائى غرضه الاستعطاف، وفيه من رعاية حال المتكلم ولجوئه إلى أبيه وارتكانه إلى نصحه وعلمه ما فيه؛ فهو أولى من يقص عليه رؤيته لأنه أكثر الناس حبًّا له وشفقة عليه، بخلاف إخوته الذين يحقدون عليه، ومن المعلوم أن الرؤيا يستحب أن تقص على محبى الرائى.

كذلك فإن التوكيد بـ"إن" فى قوله: ﴿**إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا**﴾ لا يمكن تنزيله على مخاطب منكر أو متردد فى قبول الخبر، وذلك لأن يوسف –عليه السلام- ليس محلّ شك أو تكذيب عند أبيه، كما أن الزعم بأنه نزل غير المنكر أو غير الشاك المتردد منزلة أحدهما كلام متكلف لا دليل عليه.

فلم يبق إلا أن يحمل هذا التوكيد على رعاية حال المتكلم نفسه وأن توكيده ليس لحال المخاطب من حيث الإنكار أو الشك، وإنما جاء هذا التوكيد معبرًا عن مدى استعظام يوسف –عليه السلام- لهذا الأمر وتعجبه ودهشته فيه.

كما نلمح مظهرًا آخر من مظاهر التوكيد فى الآية، وهو التوكيد بتكرار الفعل (رأيت) مع الضمير (هم) العائد على المرئى المذكور وهو أحد عشر كوكبًا، وهو صورة من صور الإطناب كذلك، و لم يكن الغرض من هذا الإطناب بالتوكيد بالضرورة إقناع المخاطب أو إزالة شكه أو تردده أو إنكاره بقدر ما كان تعبيرًا عن مدى العجب والدهشة لدى المتكلم التى عبر عنها بهذا الإطناب بتكرار الفعل وتأكيده الذى يمكن أن نتصور إيراده لإزالة شك المتكلم نفسه فيما يندهش له أكثر من كونه مُوردًا لإزالة شك المخاطب.

كما أن جواب يعقوب عليه السلام له فى قوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا بُنَىِّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾(٩٢).

وإن جاء مراعيًا حال المخاطب يوسف –عليه السلام- بما اشتمل عليه من وسائل التوكيد والتحذير؛ فإنه جاء مراعيًا حال المتكلم كذلك حيث دلّ على شدّة حب يعقوب لابنه يوسف –عليهما السلام- كما يكشف عن تلطفه له، وحرصه على إقناعه، مبرزًا العاقبة ثم سببها، ويكشف كذلك عن واسع خبرته بأبنائه وخلجات نفوسهم، مما يجعله يوقن برد فعلهم إزاء شيء لم يحدث بعد.

فهذه ثلاثة مواضع فى كتاب الله تعالى لا رابع لها، وقد جاءت كلها على نسق ربانى واحد، وهذا النسق هو ترتيب عمل الرسول كالآتى:

١) تلاوة الآيات

٢) التزكيـــــة

٣) التعليــــــم

وتكرار الآيات الثلاثة بهذا النسق والترتيب المتحد يدل على أن إبراهيم الخليل عليه السلام قد فاته بعلمه البشرى المحدود الترتيب الصحيح للمنهج الدعوى فى عمـــل الرسول الذى دعا ببعثته.

وتأتى هذه الآية التى تشتمل على دعاء إبراهيم عليه السلام مخالفة فى ترتيبها النســـق القرآنى فى الآيات الثلاثة الأخرى التى تحدثت فى هذا الصدد بذاته؛ وذلـــك مراعـــاة لحـــال المتكلم، معبرة عن بشريته وعلمه المحدود إزاء علم الله تعالى وحكمته التى لا حدّ لها ولا نهاية.

فالإنشاء فى قوله: "يا بنيّ" نداء دلّ على مدى الإشفاق والرحمة بيوسف، كما دلّ فى الوقت نفسه على مدى التلطف به والحرص عليه، وكذلك: النهى: "**لا تقصص**" وإن أريد به تحذير المخاطب فقد دلّ فى الوقت نفسه على حال المتكلم ومدى حرصه وشفقته على ابنه فى تحذيره من قصّ هذه الرؤيا.

وفى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(٩٣).

نحن هنا أمام مشهد يكشف عن تحايل هؤلاء الأبناء على أبيهم، ويظهر مدى حرصهم فى الوصول إلى بغيتهم، ولا يكون ذلك إلا بإقناعهم أباهم ليخلى بينهم وبين يوسف بإرساله معهم، فانظر كيف تلطفوا له فى القول، وكيف عرفوا أنه لا يأمنهم على أخيهم، وأنه لا سبيل لإقناعه إلا بإبراز ما فى هذه النزهة من متعة ليوسف، فقدموا لذلك بمحاولة إزالة مخاوفه؛ فلا مبرر لها بزعمهم، "**وإنا له لناصحون**" وقد بذلوا فى إقناعه فى هاتين الآيتين وما بعدهما جهدًا كبيرًا يدل على مدى حرصهم على تنفيذ ما اتفقوا عليه من إلقائه فى الجب فى أسرع وقت؛ فلم يكلّوا ولم يملّوا، بل طفقوا يزيلون عن أبيهم جميع المخاوف التى من شأنها أن تمنعه من إرسال يوسف عليه السلام معهم، فإذا كانوا على بينة من حال أبيهم؛ فلا عجب أن يخرج كلامهم مراعيًا لتلك الحال.

وفى قوله تعالى: ﴿**قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ**﴾(٩٤).

ذكر يعقوب –عليه السلام– سببين يمنعانه من إرسال أخيهم معهم؛ حزنه لفراقه، وخوفه عليه من أكل الذئب له، وكأنه لا يسلّم لهم بالسبب الذى ذكروه؛ وهو أنه لا يأمنهم عليه، وإن كان لم ينكر ذلك صراحة؛ فحاله حال نبى يريد ألا يكذب، ويريد فى الوقت ذاته أن يصرفهم بلطف عما ذهبوا إليه؛ فعدد لهم ما يدفعه إلى منعه عنهم. وهو بالطبع قد راعى حالهم؛ فلم يصارحهم بالسبب الرئيسى، محاولاً التخفيف من تأجج نار الحقد والغل والحسد ليوسف عليه السلام، ولكن جاء الكلام مع ذلك دالاً على حاله كاشفًا عنه.

فالتوكيد فى قوله: "**إنى ليحزنني**" توكيد بإن واللام ليس مقصودًا به المخاطب بلا شك. فأبناؤه متيقنون من شدة محبته ليوسف وأنه لا يصبر على فراقه طرفة عين، ولولا ذلك لما أقدموا على ما هم مقدمون عليه. ورعاية حال المخاطب تقتضى من هذا النبى الحكيم ألا يؤكد ذلك الأمر ولا يظهره لأبنائه لكيلا يزيد اشتعال الحقد فى قلوبهم، ولا يزكى نار العداوة فيها. ولكن جاء هذا التوكيد فلتة من فلتات لسانه كتعبير شعورى تلقائى يفيض به قلبه الذى يكاد ينفطر بمجرد تصور الفراق ولو لساعة

يسيرة، فيأتى هذا الكلام المؤكد بأكثر من وسيلة من وسائل التوكيد كاشفًا عن تلك الحال ومبينًا لها أتم التبيين.

ويدل لذلك أيضًا تعبيره بالفعل دون الاسم فعبر بـ"**أن تذهبوا به**" بدلاً من "**ذهابكم به**" فأتى الكلام كاشفًا عن حال المتكلم بذلك، وهو أن الحزن المؤكد يلم به لمجرد وجود فعل الذهاب ومجرد تصور الحدث، بله ما تحدثه نفسه به -وهو صاحب النفس الملهمة- من ذهاب بلا رجعة مريبة، فلذلك جاء التعبير بالفعل الدال على مجرد الحدث دون الاسم الدال على الثبوت والدوام.

وفى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ**﴾[95].

اعتذر لهم بعذرين فأجابوا عن أحدهما دون الآخر وفى ذلك من رعاية حال المتكلم أن حزنه لفراقه يغيظهم فأعاروه آذانًا صمًّا ولم يعبئوا به[96]، كذلك لا حيلة لهم حيال ذلك.

فإذا كانت رعاية حال المتكلم قد عبر عنها فيما سبق بصور الكلام المختلفة، فقد عبر عنها فى هذا الموضع بالسكوت الذى قد يكون أبلغ من الكلام أحيانًا.

وفى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾[97].

قد يظن أن الآية راعت حال المخاطب فى هذا التوكيد: "**إنا ذهبنا نستبق..**" فالتوكيد هنا جاء لخطاب منكر أو شاك فلذا وجب التوكيد أو حسن، ولكننا نرى أن الآية بكل وسائلها التعبيرية قد جاءت كاشفة لحال المتكلم معبرة عنه أكثر من مراعاتها لحال المخاطب.

انظر كيف يتحدثون تحدث الواثق من تكذيب من أمامه له؛ فهم يعلمون أن حجتهم لا تقوى على إقناع أبيهم؛ فيتركون الحجة ويركزون القول على أنهم غير مُصَدَّقين عندهم أبيهم من قبل أن يتحججوا بتلك الحجة الواهية التى لا يُصدَّق معها الصادق، فكيف الحال وقد اجتمع ضعف الحجة وسابق التكذيب. والمتأمل فى ردهم وهم كاذبون يتضح له الفارق جليًّا حين كانوا صادقين، حينما أخذ يوسف أخاه فى دين الملك حيث قالوا: ﴿**يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ، وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾[98]؛ فهم هنا يتحدثون تحدث الواثق الذى لا يخشى أن يكذبه أحد، بل يطلب ممن لا يصدقه أن يتحرى عن صدقه بكل الوسائل الممكنة، بعكس الموقف الأول الذى اكتفوا فيه بتقرير أن العادة قد جرت بأنه لا يُصَدِّقهم فكيف إذا قالوا بما يصعب

تصديقه وشتان بين الموقفين.

ففي الموضع الأول سكتوا عن إيراد الحجة، وشغبوا بتوكيد أنهم غير مُصَدَّقين لدى أبيهم بهذا النفى الذى أدخلوا الباء على خبره للتوكيد، وأدخلوا اللام فى (لنا) ليضمِّنوا الإيمان معنى الإقرار؛ أى أنك لا تقر لنا بما نقول ولا تسلم به، ثم انظر كيف عبروا بالاسم (مؤمن) وبالجملة الاسمية مشغبين بأن هذه هى عادته ودأبه أنه لا يؤمن لهم على الدوام، وكل ذلك يكشف عن حال كاذبة مراوغة تحاول تغطية جرمها بشتى وسائل الشغب والتشويش، أما فى الموضع الثانى، حيث كانوا صادقين، فهم أغنياء عن هذا الشغب والتشويش بل يظهر فى كلامهم -رغم المأزق الذى هم فيه- تظهر نبرة الواثق من كلامه، الملوح بالتهمة لغيره، المالك للأدلة والبراهين على صدقه، ولذا فقد اكتفوا بإيراد هذه الأدلة عن كثير من الشغب فى هذا الموقف.

فنراهم يعبرون بقولهم: "**إن ابنك**" ولم يقولوا: "**إن أخانا**" كأنهم يتبرأون لما نسب إليه من نسبه وصلته بهم فهو أمر لا شأن لهم به، ويؤكدون عن طريق الحصر بالنفى والاستثناء أنهم ما تزيدوا عليه، وما شهدوا بذلك من قبل أنفسهم، بل ما شهدوا إلا بما علموا، وأنهم ما كانوا حافظين لما يخبئه القدر لهم، ولا عالمين بما تؤول إليه الأمور، وكأنه اعتذار منهم عن أخذهم هذا الأخ معهم فى هذه المرة، وكأنهم يقولون: لو علمنا ما أخذناه.

ثم ها هم يوردون من الحجج ما يؤكد صدقهم فيما يقولون بإيراد هذا الأمر الإنشائى الذى غرضه إثبات صدقهم وتبرئة ساحتهم، فهم يعلمون أن أباهم لن يهم بالسؤال لعجزه وضعفه، ولكنه غاية ما يملكون من أدلة وبراهين.

ومع ما فى ذلك كله من رعاية لحال المخاطب لا تنكر فإنه دلالة ذلك كله على حال المتكلم وكشفه عنه وتصويره له أمر ينبغى ألا يغفل كذلك، وهو ما غفل عنه للأسف الشديد كثير من المفسرين والبلاغيين.

وفى قوله تعالى: ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾(٩٩).

نكاد نستشعر أن الكلام خطاب للذات، وعود على النفس أكثر منه خطابًا لمخاطب آخر.

إنه يصور صورة الأب الحزين البائس اليائس من الأمل فى هؤلاء الأبناء المحتالين الكائدين لأخيهم، ولكنه وإن فقد الأمل فيهم، فإنه لم يفقد رجاءه فى الله وثقته به فيطلب من نفسه الصبر الجميل، ويقرر لنفسه أن الله تعالى هو المستعان على ما يصفون، فهو وحده الملجأ والملاذ فى كل كرب ولا حول ولا قوة إلا به.

فنحن هنا أمام إضراب وإنشاء وخبر، والمخاطب بها جميعًا هو المتكلم نفسه حيث يئس المتكلم من مخاطبه بلا شك، وأيقن أن الكلام لا يجدى معه، فقد فهم يعقوب ما حدث فجاء الإضراب بـ"بل" معلنًا أن ما قالوه محض كذب، وأن الحق ما يقول؛ فهو يتحدث بثقة بالغة؛ هي تعبير عن حاله هو، لا حالهم، ولا يملك الأب الرحيم أن ينتقم لنفسه من أولاده بل يستعين بالله ويصبر.

ثم يأتى الإنشاء "**فصبر جميل**" بهذا الخبر الذى أريد به الطلب خطابًا لنفسه كذلك غرضه التسلية والتهوين، ثم يأتى بعد ذلك هذا الخبر "**والله المستعان على ما تصفون**" ليقرر لنفسه أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه لا ملاذ له إلا فى رحابه.

وكذلك فى قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾(١٠٠).

جاءت الآية مراعية لحال امرأة العزيز كاشفة عن كيدها فى إخفاء جريمتها عن طريق المصادرة بهذا الاستفهام الذى غرضه التمويه والإلهاء عما هى متلبسة به كما تكشف الآية كذلك عن مدى تعلقها بيوسف –عليه السلام– وإبقائها عليه فلم تتهمه صراحة؛ بل سألت عن حكم عام، وكذلك عرضت العقاب الذى يودى بحياته؛ فهى لا تزال تريده، وبالطبع عدم الاتهام الصريح روعى فيه حالها هى، لا حال من تخاطبه، فهى التى تعلم علم اليقين براءة يوسف عليه السلام.

وفى قوله تعالى: ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾(١٠١).

يظهر لنا مدى حرص المتكلم، وخوفه من أن ينطق بما لا يليق بامرأة العزيز فى حضرة عزيز مصر، وهذا إن كان مراعاة لمقام المخاطب وهو عزيز مصر من جهة، ففيه ما لا يخفى من حرص المتحدث ولباقته من جهة أخرى؛ فحين بدأ، بدأ بالاحتمال الذى يبرئ ساحتها: ﴿**إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ**﴾، ثم حين أشار إلى الاحتمال الآخر –وهو ما لا بد من ذكره؛ فهو الوجه الآخر للقسمة المنطقية– لم يقل: "صدق وهى من الكاذبين" كما قال فى الأولى: "**صدقت وهو من الكاذبين**"؛ بل قال: ﴿**فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾، وقد راعى فى ذلك شيئين؛ الأول البدء بها أو بالحكم عليها فى الجملتين، وأما الثانى فإن كان الكذب منه فهو من الكاذبين المداومين على الكذب؛ ولذا جاء التعبير باسم الفاعل دالاً على الثبات والمداومة، وإن كانت الأخرى، فإنما تكون قد كذبت كذبة واحدة لا تنهض لإدراجها مع الكاذبين؛ ولذا جاء التعبير بالفعل الذى لا يدل إلا على مجرد الحدث دون الثبات والمداومة عليه.

وفى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذى لُمْتُنَّنى فيه وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَفْسه فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾(١٠٢).

الكلام هنا واضح فى دلالته على حال المتكلم وهو تلك المرأة الفاجرة المتبجحة، المجاهرة بما ارتكبت وبالعزم على المضى فى إغواء يوسف –عليه السلام– أمام هؤلاء النسوة، فالإشارة بذلك إلى يوسف أريد بها تعظيم جماله وحسنه، وإضافة ذلك إلى نون النسوة "**ذلكن**" فيه إنكار واحتجاج عليهن، فلسان حالها يقول: ذلك الذى لمتنني فيه وكان حديثكن، أفمثل هذا الجمال والحسن يُلام عليه من أغرى وأولع به؟

وهذا المعنى هو ما ألمح به إضافة الإشارة إلى نون النسوة، وعبرت بالاسم الموصول (الذي) لأنهن لم يكن يعرفن منه سوىما تعلقت به صلة الموصول وهو لومهن إياها علىعشقها له وولعها به؛ ولأن هذا الذى تعلق به الاسم الموصول هو محك القضية وبيت القصيد، وحيث رأت أنها قد استوجبت الحق عليهن، وأقامت عليهن حجة لاترد عند أمثالهن من البغايا الفاجرات، لم تجد غضاضة من الاعتراف بما سبق لومهن عليه، بأسلوب خبرى يتضمن الإقرار على أبلغ وجه من جهة التوكيد بقد واللام والفعل الماضى الدال على تحقق وقوع الفعل: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَفْسه فَاسْتَعْصَمَ﴾ ومعلوم أنهن لا يجهلن هذا الخبر ولا يشككن فيه، وهن اللائى قد رمينها به من قبل، فمن ثم لم يبق للتوكيد وجه سوى التعبير عن حال المتكلم ومدى ما عليه تلك المرأة من الغواية والتبجح والإعلان بالفجور والاستهانة بالشرف والفضيلة.

ويزيد فى الكشف عن بذاءتها وفجورها وتبجحها تلك المفارقة الواضحة فى تقريرها على أبلغ وجه لأمرين متناقضين (مراودتها إياه، واستعصامه وامتناعه منها).

ثم تزيد فى الكشف عن عزمها الأكيد فى المضى فى فجورها بلا رجعة بهذا القسم المقدر المؤكد بلام القسم والتوكيد فى لام القسم وجوابه المؤكد باللام ونونى التوكيد الثقيلة والخفيفة، وكأنها أكدت وعيدها وإصرارها بكل وسيلة من وسائل التوكيد فقالت مهددة متوعدة عازمة على مضيها فى فجورها: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

فالكلام هنا مطابق لحال المتكلم، ولا عجب أن هذا الكلام على لسان امرأة ينبغى أن تنطلق فى حديثها من منطلق الحياء الذى جبلت عليه النساء، فلا عجب أن نسمع من هذه المرأة هذه اللهجة المتبجحة المجاهرة بطلب الفجور فهى ما أفرزته تلك البيئة الملكية الفاسدة التى ذهبت فيها النخوة والكرامة حيث غلبت عليها رائحة النتن والفجور.

وهذا الحال لا يصطدم بالطبع مع مراعاة حال المخاطب؛ فهؤلاء النسوة على شاكلتها؛ لم يتحرجن بعد من المشاركة فى إغواء يوسف عليه السلام بعد أن مكرن بها

ولمنها من قبل.

وفى قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ يَا بَنِى لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾(١٠٣).

المخاطبون هنا هم أولاد يعقوب، والخطاب يبرز لنا حال يعقوب -عليه السلام- لا حال أبنائه، فالحديث يكاد يقطر شفقة وخوفًا عليهم، نلمح ذلك من هذه الأساليب الإنشائية المتعددة النداء الذى غرضه الاستعطاف والإشفاق، والنهى الذى غرضه النصح والإرشاد، وكذلك الأمر "**ادخلوا**" بما فيه من نصح وإرشاد وتعليم، كما أن قوله: ﴿**وَمَا أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾ يخاطبهم فيه بما يختلج فى نفسه، فينقله إليهم كما هو دون تغيير أو تبديل، ولا يمنع أن يكون قد راعى حالهم؛ فأراد ألا يعتمدوا على الأسباب اعتمادًا كليًّا؛ بل يأخذوا بالأسباب ويتوكلوا على مسبب الأسباب.

وفى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**﴾(١٠٤) كلام ملؤه الثقة، وكيف لا وهم محقون فى كل حرف منه؛ فهم من نسل الأنبياء، ولم يُجرَّب عليهم سرقة من قبل، كما أنهم فى تلك المرة على وجه الخصوص كانوا يتوخون الحذر كله لما أخذ عليهم أبوهم من موثق؛ فلم يخطر الإفساد ببالهم أبدًا كما حدث أيام وسوس لهم الشيطان فألقوا يوسف -عليه السلام- فى الجب.

فانظر كيف أكدوا كلامهم بالقسم واللام وقد والفعل الماضى، ولام الجحود الدالة على أن مثل ذلك لا يتأتى منهم ولا يليق بأمثالهم من أبناء الرسل، والنفى الدال على الثبوت والدوام لكونه نفيًا للكينونة (**ما كنا**) وباستخدام اسم الفاعل الدال على الثبوت والدوام (**سارقين**) ثم قارن ذلك بما سبق بيانه من حالهم عند كذبهم على أبيهم بقولهم: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ**﴾(١٠٥) لا يخلو كذلك من رعاية لحال المتكلم حيث إن هذا الاستفهام: "**فما جزاؤه..**" استفهام أريد به الاستدراج لتقريرهم بما فى شريعتهم من أخذ السارق رهينة وتمكين صاحب المتاع منه، وهذا هو ما يستدرجهم يوسف إلى الحكم به على أنفسهم.

وكذلك فى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ**﴾(١٠٦)

كلام يدل على حال المتكلمين من حيث دلالته على مبلغ الثقة من تمام البراءة

من أى إثم؛ فلا يُعقل أن يشدد سارق على نفسه بنفسه فقد ألزموا أنفسهم بتسليم السارق دون أدنى تردد؛ وهذا بالطبع حال المتكلم لا المخاطب.

كما يدل على ثقتهم كذلك من براءهم عدم تسليمهم بلفظ السرقة حيث قالوا: **"جزاؤه من وجد"**، ولم يقولوا: "من سرق".

وقوله تعالى: ﴿**قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ**﴾(١٠٧)

دال على ما تنطوى عليه دخيلة قلوبهم من الغل والحقد على يوسف وأخيه، فسرعان ما تبرؤوا من أخيهم، وظهر غلهم القديم على يوسف وحقدهم عليه؛ فرموه بالسرقة، وكأنهم أرادوا أن يُبينوا للعزيز أن السارق وأخاه على شاكلة، وهم على شاكلة أخرى تمامًا ليُبرروا له سابق قولهم: **"وما كنا سارقين"** وهذه المحاولة فيها من رعاية حال الخاطب أيضًا، والحرص على تحسين صورتهم أمامه لتعظيم مكانه وواسع سلطته.

وفى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يأيها الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(١٠٨)

نلحظ كيف جاء الكلام دالاً على حالهم من حيث الضعف والانكسار والاستعطاف للعزيز، نلحظ ذلك فى استعطافهم بالنداء وتوكيدهم لمن لا يكذبهم فيما يدعون: "**إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا**" "**إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**" وإذا تصور إمكان أن يكون التوكيد رعاية لحال المخاطب، لاستعطافه، فإن دلالته على حال المتكلم وإشفاقه وتذلله أمر لا ينكر كذلك.

وفى قوله تعالى: ﴿**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ**﴾(١٠٩)

يظهر جليًّا حال يوسف –عليه السلام- كنبى يتحرى الصدق فى كلامه وإن كان فى موضع حيلة قد يترخص فيه غيره بالكذب، ولكن ما كان للنبى أن يكذب، فلم يقل: "معاذ الله أن نأخذ إلا من سرق" بل لم يجاوز الحقيقة حيث قال: "**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ**".

وقوله تعالى: ﴿**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ**﴾(١١٠)، لا شك فى أن هذا الكلام هنا يعبر عن حال المتكلم، ولا علاقة له بحال المخاطب؛ فإنما هى زفرة ملتاع أحرقت قلبه لوعة الفراق، فراح ينفس عن نفسه ويخفف عنها ببث حزنه وشكواه إلى الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾.

الخاتمة ونتائج البحث

من خلال النماذج التى عرض لها البحث، والتى تم تتبع أمثلتها فى سورة البقرة –وغيرها من الآيات التى وقف عندها المفسرون فى مختلف سور القرآن– نستطيع أن نقرر الآتى:

١ – أن رعاية حال المتكلم وإن لم يلتفت إليها كثير من البلاغيين النظريين فقد التفت إليها كثير من المفسرين فى تطبيقاتهم البلاغية حول القرآن الكريم، وقد عرض البحث من أقوال المفسرين ما يشهد لذلك ضمن ما أورده من النماذج.

٢– أن القرآن الكريم قد عنى برعاية حال المتكلم فى جميع نصوصه ويظهر ذلك واضحا جليا بحيث تظهر رعايته فى المقام الأول فى النصوص التى يحكى القرآن فيها أقوال طوائف الناس، أو يتكلم على ألسنتهم، وذلك كما يظهر واضحا من أغلب الأمثلة التى أوردناها مما تعد من قبيل مقول القول.

٣– أن رعاية حال المتكلم لا تكاد تنفك عن حال المخاطب، حتى فى أكثر النصوص التى يظن أنها قد أفردت لرعاية حال المخاطب شاكًا أو منكرًا أو مترددا أو غير ذلك، فإن الخصائص التعبيرية لهذه التراكيب تحمل فى طياتها كذلك ما يعبر عن حال المتكلم ويكشف عنه.

ونستطيع أن نقرر على الجملة:

● أن توكيد المتكلم –على سبيل المثال– الكلام للمخاطب إنما يعبر فى الوقت نفسه عن اهتمام المتكلم بهذا الأمر الذى يؤكده وحرصه عليه، وهذا حال للمتكلم قد أهمل بيانه والكشف عنه عند كثير من البلاغيين، وينبغى الاهتمام ببيانه بالقدر نفسه الذى يهتم فيه ببيان حال المخاطب إن لم يكن أكثر؛ وذلك لأن حال المتكلم هو الدافع المباشر للكلام.

● وذلك لأننا إذا قلنا إن موقف المخاطب يمثل مثيرا للمتكلم يدفعه إلى تمييز خطابه له بهذه الخصائص التعبيرية؛ فإننا نقول إننا لا ننكر تأثر المتكلم بموقف المخاطب، ولكننا نقول إن موقف المخاطب يولد لدى المتكلم حالة نفسية معينة هى التى يتم الانفعال على أساسها، ومن ثم توجيه الكلام إلى المخاطب ومحاولة التأثير فيه بالخصائص التعبيرية المختلفة.

● إنكار المتكلم على المخاطب يعبر فى الوقت نفسه كذلك عن موقف المتكلم الرافض لما عليه المخاطب، كما يحمل محاولة رد المخاطب عما هو عليه وإنكاره عليه سواء بسواء، ومعنى ذلك أن الخصائص التعبيرية المختلفة التى سماها البلاغيون بخصائص التراكيب تعبر فى الوقت نفسه عن كل من حال المخاطب وحال المتكلم سواء بسواء.

●يقاس على ذلك جميع الأحوال مثل: المدح والذم والتوبيخ والتعجب.. إلخ، فالمدح على سبيل المثال، وإن كان موجها للمخاطب فإنه يحمل فى الوقت نفسه قناعة المتكلم بصفات الممدوح ورضائه عنها، أو عدم قناعته وتملقه فيها، أو غير ذلك مما يكشف عنه السياق والمقام.

●وكذلك الذم إنما يحمل على العكس من ذلك كراهية المتكلم لتلك الصفات وبغضه إياها.. وهكذا.

٤- حاول البحث التركيز على رعاية حال المتكلم باعتباره المعيار الأول لصدق العمل الأدبى؛ بل لعل هذا هو المقياس الوحيد لصدق الأديب، وذلك أن الكلام كلما كان معبرا عن حال المتكلم، وموقفه إزاء المخاطب، وإنفعاله تجاهه، واهتمامه بالقضية المتحدث عنها كلما كان دالا على صدق عاطفته ومشاعره مما يضمن للعمل الأدبى النأى عن موارد التكلف والغلو الممقوت فى النص الأدبى.

٥- حاول هذا البحث أن يسلط الضوء على حال المتكلم وضرورة مراعاته والكشف عنه بغية المساهمة فى تقدم الدراسات البلاغية والنقدية وتحررها من التقيد بربقة النظريات البلاغية القاصرة عن الإلمام بجميع معطيات النص الأدبى فى محاولة للالتحام بالنصوص والتطبيق بدرجة أكبر تضمن للبحث البلاغى نتائج أكثر صدقا وأقرب للصواب من تلك النظريات التى تحوم فى آفاق العقول، وتستلهم حدود المنطق، دون أن تستجلى معالم النص وتهتدى بهداه.

●وختاما يرجو الباحث أن يكون قد وفق فيما قصد إليه، وأن يساهم هذا البحث فى الاهتمام بهذا الجانب البلاغى بمزيد من البحوث التطبيقية فى مجالات مختلفة تشمل القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، والشعر العربى فى مختلف العصور، ولعل الباحث قد تهيأ له الفرصة لاستكمال ذلك فى بحوث لاحقة، وإلا فحسبه أنه قد فتح الطريق لغيره من الباحثين لاستكمال المسيرة فى هذا الموضع الثر. والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الهوامش

١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١٩١/٢) بتحقيقي - ط. المكتبة العصرية-بيروت.وقال الآمدي في معنى قول عمر ﷺ في زهير: "وكان لا يمدح الرجل إلا بما يكون في الرجال" أراد أنه لا يمدح السوقة بما يمدح به الملوك، ولا يمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يمدح به الصعاليك والأبطال وحملة السلاح".<الموازنة للآمدي - تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد- ط. المكتبة العلمية- بيروت- ص٢٥٩ >.

٢- الإيضاح للقزويني / تحقيق د/ عبد الحميد هنداوى- ط. مؤسسة مختار ص١٤، وعرفه السكاكي في المفتاح بقوله: "هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"<مفتاح العلوم ص ٢٤٧ بتحقيقي- ط. دار الكتب العلمية-بيروت>.

٣- السابق ص٢٠٢، ولا يكاد يختلف ذلك التعريف عن تعريف السكاكي له في المفتاح ص ٢٤٩.

٤- السابق ص١٠.

٥- المطول للتفتازاني بتحقيقي- ط. دار الكتب العلمية- بيروت- ص١٥٣.

٦- السابق.

٧- مختصر السعد بتحقيقي - ط. المكتبة العصرية- بيروت - ص٣١.

٨- انظر: دراسات فى علمى المعانى والبديع د/ حسن طبل - دار الزهراء - ص ١٢ - ١٤.

٩- السَّكّاكى: مفتاح العلوم ص٢٦٥.

١٠- السابق نفسه.

١١- يس: (١٣-١٦).

١٢- هود: ٣٧.

١٣- لم يلتفت معظم البلاغيين المتأخرين في تنظيرهم للبلاغة لرعاية حال المتكلم إلا نادرًا، وذلك كما في مبحث الحقيقة والمجاز العقليين:

حيث عرفوا الحقيقة بأنها: "إسناد الفعل، أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر" <الإيضاح بتحقيقي ص٣٢ >.والمجاز: "هو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له، غير ما هو له - أي: عند المتكلم- بتأول" <السابق>.

والعجيب أن نرى البلاغيين وكأنهم يتحاشون أن يثبتوا للمتكلم أي أثر في

تشكيل الخطاب أو في إثبات مطابقة الكلام لمقتضى حال المتكلم، والدليل على ذلك أن ثمة أمثلة يظهر فيها اعتبار حال المتكلم بصورة واضحة بحيث لا يستطيع أحد إنكار أثره في تلون الخطاب بالوسائل التعبيرية المختلفة التي ما جاءت إلا مطابقة لحال المتكلم لا غير، وذلك كما في تعليقهم على إثبات المسند إليه أو ذكره في قوله تعالى: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٨] حيث نجد تعليقًا عجيبًا في الاستدلال بالآية في أسباب ذكر المسند إليه حيث يقولون: إنه ذكر لـ "بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب". <الإيضاح ص ٤٤>.

وفي العبارة التواء كأنهم أرادوا به تحاشي رعاية حال المتكلم؛ حيث إن مقتضى السياق أن يقال: "بسط الكلام حيث الإطناب – أي: من المتكلم- مطلوب" ولكنهم تحاشوا ذلك عمدًا، مما دفع السبكي في "عروس الأفراح" إلى الاعتراض فقال: " قلت: "وقولهم: "حيث الإصغاء مطلوب" فيه نظر؛ لأن المطلوب هو الكلام المستدعى من موسى – عليه السلام- لا الإصغاء، وإن أخذ الإصغاء من جانبه – عز وجل- فذلك لا يسمى إصغاء، ولو سُمِّي فإنما كان المقصود كلام الله تعالى، وأن يُصغى هو له، وذلك لا يحصل ببسط الجواب، ولم يكن المقصود سماع الله تعالى، فإنه حاصل لا يزال" <عروس الأفراح (١/١٦٢- ١٦٣) بتحقيقي- ط. المكتبة العصرية-بيروت >.

١٤- انظر : دراسات في علمي المعاني والبديع – د/ حسن طبل – دار الزهراء – ص١٢-١٤.

١٥- من الباحثين المحدثين الذين انتقدوا ذلك المسلك على البلاغيين الشيخ أمين الخولي في كتابه فن القول ص٢٠١.

١٦- مريم : ٢٠.

١٧- الطيبي. فتوح الغيب ٤٧٣ . تفسير طلعت ق ٩/أ.

١٨- الفاتحة : (٢-٥).

١٩- الزمخشري. الكشاف: (١/١٠).

٢٠- الطيبي. فتوح الغيب ٤٧٣، تفسير تيمور ق٢١ /ق.

٢١- فتوح الغيب ٤٧٣ . تفسير تيمور ق٢٢ / ب.

٢٢- فتوح الغيب ٤٧٣ . تفسير تيمور ق٢٢ / ب.

٢٣- الكشاف: (١/١٠).

٢٤- الطيبي. الكاشف عن حقائق السنن، ق٢٠٠/ أو انظره بتحقيقي لشرح مشكاة المصابيح ط. المكتبة التجارية – مكة المكرمة.

٢٥- المؤمنون : (١٥-١٦).

٢٦- الخطيب القزويني: "الإيضاح" ص(٣١) بتحقيقى.
٢٧- البقرة : ١٤، الطيبـــى: التبيان ص٥٣.
٢٨- الزمخشرى: الكشاف (١/٣٤).
٢٩- الطيبـــى، فتوح الغيب ٤٧٣، تفسير تيمور ق٥٤.
٣٠- علي بن عيسى: حدائق البيان: فى شرح التبيان، مخطوط ق١٩.
٣١- مريم : ٤.
٣٢- الكشاف : (٢/٤٠٥).
٣٣- فتوح الغيب للطيبى مخطوط بدار الكتب (١/٥) تفسير طلعت، ق٣/٢.
٣٤- التحرير والتنوير: (١٦/٩٤).
٣٥- روح المعانى للألوسى: (١٦/٦٠).
٣٦- آل عمران: ٣٦.
٣٧- الدر المصون: (١/٤٢٥).
٣٨- التحرير والتنوير: (٣/٢٣٣).
٣٩- البقرة: ١١.
٤٠- الكشاف: (١/٣٣).
٤١- ابن كثير (١/٥٤) ط. دار الندوة العالمية للشباب الإسلامى.
٤٢- دلائل الإعجاز / ط الخانجى ص٣٥٨.
٤٣- ابن كثير: (١/٥٤).
٤٤- الكشاف: (١/٧٧).
٤٥- البقرة : ٢٦، الكشاف: (١/٤٨-٤٩).
٤٦- استعملنا كلمة المقام فى حق الحق تبارك وتعالى نظرا لأن الحال تشـــتمل على معنى الاستحالة أو التحول من حال إلى حال مما قد يوقعنا فى إشكال عقدى مـــن جهة أن صفات الله تعالى ثابتة لا يجوز عليها التحول والتغير، والله تعالى أعلم.
٤٧- عبرنا بلفظ المقام بالنسبة للحق سبحانه تحاشيا من لفظ الحـــال المـــوهم للاستحالة والتحول مما لا يليق به سبحانه.
٤٨- الظلال ص ٥٠.
٤٩- الألوسى : روح المعانى (١/٢٠٦) ط. إحياء التراث العربى ببيروت.
٥٠- الظلال: (١ / ٥٠).
٥١- الإسراء : ٨٥.
٥٢- الظلال: (١ / ٥٠).

٥٣- الألوسي: روح المعاني (٢٠٧/١).
٥٤- الكشاف: (٥٧/١).
٥٥- حاشية الصاوي على الجلالين (٢٦/١) ط. دار الكتب العلمية بيروت.
٥٦- الكشاف: (٥٧/١).
٥٧- الظلال: (١/٥٠-٥١).
٥٨- البقرة : ٥٦.
٥٩- الظلال: (١ / ٧٢).
٦٠- الألوسي : (١/٢٦١ - ٢٦٢).
٦١- أي: في قولك: (جلست القرفصاء).
٦٢- الكشاف: (١/٦٩-٧٠).
٦٣- انظر الألوسي: (٢٦٢/١).
٦٤- البقرة: ٦١.
٦٥- انظر: الألوسي (٢٧٣/١).
٦٦- انظر: الألوسي (٢٧٤/١).
٦٧- الظلال: (١ / ٧٤).
٦٨- هذا هو ما رجحه أ/ سيد قطب في الظلال (٧٥/١).
٦٩- الظلال: (١ / ٧٧ - ٧٨).
٧٠- البقرة: (٦٧ - ٧١).
٧١- الظلال: (٧٨/١).
٧٢- الألوسي: (٢٨٥/١).
٧٣- انظر: البحر المحيط (٤١٥/١)، والدر المصون: (١٦٢/١)، وروح المعاني (٢٨٥/١).
٧٤- الظلال: (٧٨/١).
٧٥- الظلال : (٧٩/١).
٧٦- انظر: الطبري، وابن كثير، والقرطبي في تفسير الآية.
٧٧- الظلال : (٧٩/١).
٧٨- البقرة: ٨٠.
٧٩- الألوسي: (٣٠١/١).
٨٠- انظر: ابن كثير، والقرطبي، والكشاف، والألوسي وغيرها في تفسير الاية.

٨١- الألوسى: (١/٣٠٤).
٨٢- البقرة: ١١٨.
٨٣- الكشاف: (١/٩١).
٨٤- البقرة: (١٢٦-١٢٩).
٨٥- راجع اللسان مادة (ربب).
٨٦- التوبة : ١١٤.
٨٧- ابن كثير: (١/١٨٧).
٨٨- البقرة : ١٥١.
٨٩- آل عمران: ١٦٤.
٩٠- الجمعة : ٢.
٩١- يوسف: ٤.
٩٢- يوسف:٥.
٩٣- يوسف: (١١-١٢).
٩٤- يوسف: ١٣.
٩٥- يوسف: ١٤.
٩٦- نقلاً عن "الكشاف" للزمخشرى.
٩٧- يوسف: ١٧.
٩٨- يوسف: (٨١- ٨٢).
٩٩- يوسف: ١٨.
١٠٠- يوسف: ٢٥.
١٠١- يوسف: (٢٦-٢٧).
١٠٢- يوسف: ٣٢.
١٠٣- يوسف: ٦٧.
١٠٤- يوسف: ٧٣.
١٠٥- يوسف: ٧٤.
١٠٦- يوسف: ٧٥.
١٠٧- يوسف: ٧٧.
١٠٨- يوسف: ٧٨.
١٠٩- يوسف: ٧٩.
١١٠- يوسف: ٨٤.